من وصايا السلف

بقلم

سليم بن عيد الهلالي



دار ابن الجوزي

من وصايا السلف

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام : شارع ابن خلدون ت : ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب : ٢٩٨٢ - الرمز البريدي : ٣١٤٦١ - فاكس ٨٤١٢١٠٠
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة
ت : ٥٨٢٤٦٧٢ - ص.ب ١٧٨٦

من وصايا السلف

بقلم
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالعَصْرِ . إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ . إِلا الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ﴾ .

[العصر: ١ ـ ٣]

□□□□□

مقدمة

إِنَّ الحمدَ للهِ ؛ نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفِرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنْفُسِنا ومِن سَيِّئاتِ أَعمالِنا، مَن يَهْدِهِ الله ؛ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ ؛ فلا هادِيَ له.

وأَشْهَدُ أَن لا إِلهَ إِلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أَما بعد:

فإِنَّ التواصيَ بالحقِّ والتواصيَ بالصبرِ والتواصيَ بالمَرْحَمَةِ ميثاقٌ إِسلاميٌّ أَخذه الله ورسولُه على الجيلِ القدوةِ الأَوَّلِ ومَن تبعهم بإِحسانٍ إِلى يومِ الدين ؛ قالَ ـ عزَّ ثناؤهُ:

﴿والعَصْرِ . إِنَّ الإِنسانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

وقال ـ تباركَ اسمُه:

﴿ثُمَّ كانَ مِن الـذينَ آمَنـوا وتَـوَاصَوْا بالصَّبْرِ وتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ . أُولٰئكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧ ـ ١٨].

وعن جرير بن عبدالله:

«بايَعْتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزَّكاةِ، **والنُّصْحِ لكلِّ مسلمٍ**»[١].

والنَّصيحةُ كلمةٌ جامِعةٌ، معناها: حيازَةُ الخيرِ للمنصوحِ له، فهي من وجيزِ الكلامِ، بل ليس في الكلامِ كلمةٌ مفردةٌ تُستَوْفى بها العبارةُ عن معنى هٰذه الكَلِمَةِ.

ولذٰلك جعلها رسولُ اللهِ ﷺ الدينَ كلَّه؛ عن تميم الداريِّ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصيحَةُ».

قلنا: لمن؟

قال: «للهِ، ولكتابهِ، ورسولِه، ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهم»[٢].

ومـا ذٰلك إلا لأنها محصِّلةٌ لغَرضِ الدينِ، حيثُ تبرزُ من خلالِها صورةُ الأمَّـةِ المسلمـةِ ذات الكيانِ الخاصِّ، والرابطةِ المميزةِ، والوِجْهَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٣٧ ـ فتح)، ومسلم (٢ / ٣٩ ـ نووي).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (١ / ١٣٧ ـ فتح)، ومسلم (٢ / ٣٧ ـ نووي)، وغيرهما.

المُوَحَّدةِ، الأمةُ التي تشعرُ بوجودِها كما تَشْعُرُ بواجِبِها، وتعرفُ حقيقةَ ما هي مُقْدِمَةٌ عليه من السَّيرِ بالبشريَّةِ إلى طريقِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، فتَتواصى فيما بينها بما يُعينُها على النُّهوضِ بالأمانةِ الكُبرى، والإِمامَةِ العُظمى.

فمِن خلال لفظِ **النَّصيحَةِ** ـ المتضمن كَلِمَة التَّواصي، ومعناه، وطبيعتَه، وحقيقتَه ـ تبرزُ صورةُ الأمَّةِ المُتضامِنَةِ، المُتَضامَّةِ، الخيرةِ، الواعِيَةِ، القَيِّمَةِ في الأَرْضِ على الحقِّ والعَدْلِ والخيرِ.

وهي أَنْصَعُ وأَرْفَعُ صورةٍ للأمَّةِ المختارَةِ التي أَرادَها الله أَنْ تكونَ قائمةً على حِراسةِ الحقِّ والخيرِ، متواصيةً بالخيرِ والصَّبرِ في مودةٍ وتعاونٍ وتآخٍ، تَنْضَحُ بها كَلِمَةُ التَّواصي.

إن التَّواصيَ بالحقِّ ضَرورةٌ للنُّهوضِ بالحقِّ؛ لأن المعوِّقاتِ كثيرةٌ: هوى النَّفسِ، ومنطقَ المصلَحَةِ، وتصوراتِ البيئةِ، و. . . إلخ.

والتواصي تَذكيرٌ، وتشجيعٌ، وإِصلاحٌ، وإشعارٌ بالقُربى في الهَدَفِ والغايةِ، والأخوةِ في العبءِ والأمانةِ، فهو حصيلةُ الاتجاهاتِ الفَرديَّةِ كلِّها، حيثُ تتفاعَلُ معاً، فتتضاعَفُ أَضعافاً كثيرةً، ويقوى أَمرُها، وتَستغلِظُ، فتَسْتَوي على سوقِها؛ لتؤتيَ أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها.

والتَّواصي بالصبرِ ضَرورةٌ؛ لتتضاعفَ المقدِرَةُ على الثَّباتِ على الحقِّ، بما يبعثُهُ مِن إحساسٍ بوَحدَةِ الهَدَفِ، ووَحْدَةِ المَسارِ، وتَعاضُدِ الجميعِ، وتزودِهم بالحُبِّ والعَزمِ والإصرارِ، فهو معيارُ تماسُكِ الأمَّةِ

المسلمـةِ، فهي أَعضـاءُ مُتجـاوبةُ الحسِّ، تَشعُرُ شعوراً واحداً، فيوصي بعضُهـا بعضـاً بالصَّبْرِ على العبءِ المُشْتَرَكِ، ويُثَبِّتُ بعضُها بعضاً، فلا تَتَخاذَلُ، ويقوِّي بعضُها بعضاً، فلا تولِّي يومَ الزَّحْفِ.

وهٰـذا غيرُ الصبـرِ الفَرديِّ، وإِن كان قائماً عليه، فهو إِيحاءٌ جَلِيٌّ بواجبِ المُؤمِنِ في الأمَّـةِ المسلمَةِ بأَلا يكونَ عُنصُرَ تَخْذِيلٍ وتَثبيطٍ، بل عنصرَ تَثبيتٍ، ولا يكونَ داعيةَ هَزيمةٍ بل داعيةَ اقتحامٍ، ولا يكونَ مثارَ جَزَعٍ بل مَهبِطَ سَكينةٍ وطُمأْنينةٍ.

وكذٰلك التواصي بالمَرْحَمَةِ أَمرٌ فوقَ المرحَمَةِ؛ لأَنَّهُ إِشاعةُ الشُّعورِ بواجبِ التَّـراحُـمِ والتَّعـاطُفِ والتَّوادِّ في الصُّفوفِ المؤمِنةِ؛ ليزدادَ البنيانُ تَماسُكاً، حيث يكونُ التَّحاضُّ على المرحمَةِ واجباً فرديّاً جماعيّاً في الوقتِ نفسِهِ، يتعارَفُ عليه الجميعُ، ويتعاوَنُ عليهِ الجميعُ.

لقــد مارَسَ الجيلُ القُـدوةُ الأوَّلُ النُّصْـحَ على أَعلى المستـوياتِ وأَدنـاهـا: للهِ، ولكتـابـهِ، ولـرسـولِه، ولأئمَّةِ المسلمينَ وعامَّتِهِم، وطبَّقَ التَّواصيَ بالحقِّ، والتَّواصيَ بالصبرِ، والتَّواصيَ بالمرْحَمَةِ.

ولما كانَ معلوماً أَنَّه لنْ يَصْلُحَ آخرُ هٰذه الأمَّةِ إِلا بما صَلُحَ عليهِ أَوَّلُها؛ اخترتُ من ذٰلك نُبَذاً مُستطابةً، انتظمتْ مناحيَ الحياةِ.

وقدْ أَجْريتُ قلمي في هٰذه الوصايا:

١ ـ انتقاءً، حيثُ اخترتُ الوصايا التي اشتُهِرَتْ وانتشرتْ في عهدِ

السَّلَفِ الصالحِ من القرونِ المُفَضَّلَةِ الأولى.

٢ ـ ذكرتُ شهادَتَهُم؛ لأنَّها تمثِّلُ إقراراً لما فيها، حيث يَصلحُ أَن تُتَّخَذَ مَناراً يُهْتَدى بها.

٣ ـ خَرَّجتُ الأحاديثَ الوارِدَةَ في ثَناياها حَسْبَ قَواعِدِ الصِّناعةِ الحديثيةِ.

٤ ـ إنْ وَجَدْتُ تَعليقاً أَو شَرْحاً أَو تنبيهاً لأحَدِ عُلماء السَّلَفِ حولَ هٰذه الوَصايا؛ أَثْبَتُّهُ؛ لأنّ خيرَ مَن فسَّرَ مُرادَ السَّلَفِ هم علماءُ السَّلَفِ الصَّالحِ.

٥ ـ تَساهَلت في تخريجِ الآثارِ إذا كانت تندرجُ تحتَ الأصولِ العامَّةِ للشريعةِ، وهو أَمرٌ متعارَفٌ عليه لدى العلماءِ المحقِّقين.

٦ ـ عَزوتُ كُلَّ وصيَّةٍ إلى مَظانِّها.

٧ ـ شَرَحْتُ الألفاظَ الغريبةَ.

٨ ـ عَلَّقْتُ بإيجازٍ غيرِ مُخِلٍّ على بعضِ المواطنِ التي قد تُثيرُ التَّرَدُّدَ والتَّساؤلَ.

٩ ـ ترجمتُ للأعلامِ الواردةِ في الوصايا.

١٠ ـ صنعتُ فهارسَ علميَّةً تُعينُ طلَّابَ العلمِ على بغيَتِهِم.

راجياً مولانا الحقَّ أَن يجعَلَها صُوىً على طَريقِ الحقِّ، وإماماً لدعاةِ الحقِّ الذين جَعلوا هجرتَهُم للهِ ورَسولِهِ.

وأَسأَلُ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ أَن يَتقَبَّلَ جُهْدَ المُقِلِّ بقبولٍ حَسَنٍ، فينْبِتَهُ

نَباتاً حَسَناً ، يثمِرُ الأجْرَ الجزيلَ ، يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بنونَ ؛ إلا مَن أتى الله بقَلْبٍ سَليمٍ .

ورَحِمَ الله أخـاً غَيوراً ناصِحاً أَميناً ؛ وجَدَ خَلَلاً فأَصْلَحَهُ بالتي هي أحسنُ للتي هي أَقـوَمُ ، أَو وَجَـدَ وَهنـاً فنصَـحَ لي ، فإن المؤمنينَ تتكـافَأُ دِماؤهُم ، ويَسْعى بذِمَّتِهِم أَدْناهُم ، وهُم يَدٌ على مَن سِواهُم .

وعلى اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ .

وكتبهُ
حامداً مصلِّياً مسلِّماً أبو أُسامة سَليم بن عيد الهلالي يومَ الخميس لثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول سنةَ ألف وأربع مئة وعشـرة من هجـرة نبيِّنـا محمد ﷺ في
عمان البلقاء عاصمة الأردن



وَصِيَّةُ عَلِيِّ بنِ أَبي طالبٍ
إلى كُمَيْل بن زِياد بن نَهيكٍ النَّخْعي

قالَ كُمَيْلُ بنُ زِيادٍ[1]:

(١) هو النَّخْعي، كان شريفاً، مطاعاً في قومه، من ثقات التابعين، قتله الحجاج الثقفي صبراً سنة ٨٢هـ على تفصيل ذكره الفسوي في «المعرفة والتأريخ» (٢ / ٤٨١).

وقد تناقض ابن حبان ـ رحمه الله ـ فذكره في «الثقات» (٥ / ٣٤١)، و«المجروحين» (٢ / ٢٤١)، فقال:

«منكر الحديث جداً، تتقى روايته، ولا يحتج به».

ونبَّه الحافظان المزي وابن حجر على ذٰلك؛ كما في «تهذيب التهذيب» (٨ / ٤٤٨).

وتعقَّب العراقيُّ الحافظَ المِزِّي في «ذيل الكاشف» (ص ٢٣٩)، فقال:

«وذكر المزي أن ابن حبان ذكره في «الثقات»، والذي ذكره ابن حبان في «الثقات» إنما هو كهيل بن زياد، ووصفه بالرواية عن أبي هريرة، وبأنه روى عنه عبدالرحمٰن بن عابس».

قلت: الحق ما ذكره الحافظ المزي، فإن ابن حبان ذكره في «الثقات» (٥ / ٣٤١)، ووصفه بالنَّخْعي، والكوفي، ولم يذكر كهيل بن زياد. =

أَخَذَ عَليُّ بنُ أَبي طالبٍ بيَدي، فأَخْرَجَني إلى ناحِيَةِ الجَبَّانِ[2]، فلَمَّا أَصْحَرْنا[3]؛ جَلَسَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ، ثمَّ قالَ:

يا كُمَيْلُ بنَ زِيادٍ! القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، فخَيْرُها أَوْعاها؛ احْفَظْ ما أَقُولُ لكَ:

النَّـاسُ ثَلاثَـةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ[4]، ومُتَعَلِّمٌ على سَبيلِ نَجاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ[5] أَتْباعُ كُلِّ نَاعِقٍ[6]، يَمِيلونَ مَعَ كُلِّ ريحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئوا بنورِ العِلْمِ،

= ولا يعكِّرُ على ذٰلك بأنه وصفه بالرواية عن أبي هريرة... إلخ؛ لأن كميل بن زياد موصوف بذٰلك؛ كما في مصادر ترجمته.

مصادر ترجمته:

«التاريخ الكبير» (٧ / ٢٤٣)، و«الجرح والتعديل» (٧ / ١٧٤)، و«تهذيب التهـذيب» (٨ / ٤٤٧ - ٤٤٨)، و«تقـريب التهـذيب» (٢ / ١٣٦)، و«ميزان الاعتدال» (٣ / ٤١٥)، و«ذيل الكاشف» (ص ٢٣٩)، و«الثقات» (٥ / ٣٤١)، و«المجروحين» (٢ / ٢٤١)، وغيرها.

(٢) ما استوى من الأرض في ارتفاع، ويكون كريمَ المَنبتِ، ولا تكون في الرَّمل ولا في الجبل، وكل صحراء جَبَّانة.

(٣) برزوا إلى الفضاء، لا يواريهم شيءٌ؛ لأنهم نزلوا الصحراء التي لا خَمَرَ فيها، فانكشفوا.

(٤) هو العالم العامل البصير بسياسة الناس، حيث يربيهم على صغار العلم قبل كباره.

(٥) هو المتبدِّد المتفرق الذي لا نظام له، والمراد به دناة الناس وأرذالهم.

(٦) قال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٥٢): =

ولـمْ يَلْجَؤوا إلى رُكْنٍ وَثيقٍ[٧].

العلمُ خيرٌ مِن المالِ، العلْمُ يحْرُسُكَ وأَنْتَ تَحْرُسُ المالَ، العلمُ يَزْكو على العَمَلِ والمالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، ومَحَبَّةُ العالِمِ دِيْنٌ يُدانُ بِها.

= «والنَّاعق: الصائح، وهو في هٰذا الموضع: الراعي، يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق إذا صاحَ بها، ومنه قوله تعالى: ﴿**ومَثَلُ الذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِما لَا يَسْمَعُ إلا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يَعْقِلونَ**﴾».

(٧) قال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٥٠ ـ ٥١):

«وتقسيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب النـاس في أولـه تقسيم في غاية الصحة، ونهاية السَّداد؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها مع كمال العقل، وإزاحة العلل:

إما أن يكون عالماً، أو متعلِّماً، أو مغفلاً للعلم وطلبه؛ ليس بعالم ولا بطالب له.

فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضلة لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد.

وقد دخل في الوصف له بأنه ربَّاني وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويُمْنَع وصفُه بما خالفها.

وأما المتعلم على سبيل النجاة؛ فهو الطالب بتعلمه، والقاصد به نجاته من التفـريط في تضييع الفـروض الـواجبة عليه، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراقها، والأنفة من مجالسة البهائم، وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس مَن لم يكن من أهل العلم.

وأمـا القسم الثـالث؛ فهم المهملون لأنفسهم، الـراضـون بالمنزلة الدنيَّة، والحال الخسيسة، التي هي في الحضيض الأوهد والهبوط الأسفل، التي لا بعدها في هول، ولا دونها في السقوط، نعوذُ بالله من الخذلان وعدم التوفيق والحرمان».

العلمُ يُكْسِبُ العالِمَ الطاعَةَ في حَياتِهِ، وجميلَ الأُحْدُوثَةِ بعدَ مَوْتِهِ، وصَنيعةُ المالِ تَزولُ بزَوالِهِ.

ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهُم أَحياءٌ، والعُلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهْرُ؛ أَعيانُهُم مَفْقودةٌ، وأَمْثالُهم في القُلوبِ مَوجودَةٌ.

ها؛ إن ها هُنا ـ وأَشارَ بيدِهِ إلى صَدْرِهِ ـ علماً لو أَصَبْتُ لهُ حَمَلَةً[8]!

بلى أصبتُه لَقِناً[9] غيرَ مأْمونٍ؛ يستَعْمِلُ آلَةَ الدينِ للدُّنيا، يَسْتَظْهِرُ بحُجَجِ اللهِ على كتابِهِ، وبِنِعَمِهِ على عبادِهِ، أَو مُنقاداً لأهلِ الحقِّ لا بصيرةَ لهُ في إِحيائِهِ، يَقْتَدِحُ الشَّكُّ في قَلبِهِ بأَوَّلِ عارضٍ مِن شُبْهةٍ، لا ذا ولا ذاكَ، [لا يَدْري أَين الحقُّ؟ إنْ قالَ؛ أَخطأَ، وإِنْ أَخطأَ؛ لم يَدْرِ، مشغوفٌ بما لا يُدْرَى حقيقَتُه، فهو فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتُتِنَ بهِ، وإِنَّ مِن الخيرِ كُلِّهِ مَن عَرَّفَهُ

(٨) قال ابن أبي العز الحنفي في «الاتباع» (ص ٨٦):

«ففي هٰذا الحديث أن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ قسم حَمَلَة العلم المذمومين ثلاثة أصناف:

المبتدع الفاجر الذي ليس عنده أمانة، ولا إيمان، يبطر الحق الذي جاء به الكتاب، ويغمط الخلق، يجادل في آيات الله بغير سلطان أتاه، إن في صدره إلا كبر ما هو ببالغه.

والثاني: المقلد المنقاد بلا بصيرة ويقين.

والثالث: متبع الشهوات البدنية والمالية».

(٩) سريع الفهم؛ إلا أن العلم لم يطبعه على مكارم الأخلاق، فهو يستخدم وسائل الدين؛ لجلب الدنيا، ويستعين بنعم الله وفضله عليه على إيذاء عباد الله.

اللهِ دِينَهُ، وكَفَى بالمرءِ جَهْلاً أَن لا يعْرِفَ دِينَهُ][10]، أَو مَنْهُومٌ باللَّذَّاتِ، سَلَسُ القيادِ للشَّهَواتِ، أَو مُغْرىً بجَمْعِ الأموالِ والادِّخارِ، وليسا مِن دُعاةِ الدِّينِ، أَقربُ شَبَهاً بالأنْعامِ السَّائمَةِ[11]، كذٰلك يَموتُ العِلْمُ بمَوْتِ حَامِليه[12].

---

(10) زيادة من «جامع بيان العلم وفضله» (2 / 113).

(11) لا يخفى على الربَّانيِّين أن شياطين الإنس والجن يقتحمون النفس البشرية بسلاحين:

أحدهما: الشبهات؛ لإفساد فكره، فيضل.

والآخر: الشهوات؛ لإفساد سلوكه، فيغوى.

قال تعالى:

﴿واللهُ يُرِيْدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ويُرِيْدُ الذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيْلوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: 27].

والمؤمنُ الذي يُرابِط على ثُغورِ نفسهِ يجاهدُ هٰؤلاءِ الأعداءَ بسلاحينِ أَمضى وأَقوى.

أَحدُهما: اليقين، فيحطم الشبهات والأوهام.

والآخر: الصبر، فيحطم الشهوات والأهواء.

فمن اجتاز هٰذه القنطرة؛ كان إماماً للمُتَّقينَ، وهل تنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين؟!

قال مولانا الحق:

﴿وجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرِنا لَمَّا صَبَروا وكَانوا بآياتِنا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

(12) وآية ذٰلك قول رسول الله ﷺ:

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، =

. . . .

= حتى إذا لم يبقَ عالماً؛ اتَّخَذَ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسُئِلوا، فأَفْتَوْا بغير علم (وفي رواية: فيفتون برأيهم)، فضلوا وأضلوا».

قلت: ورد من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وعائشة ـ رضي الله عنهم، ودونك تخريجه مختصراً من كتابي «نحو خلافة راشدة على منهاج النبوة»:

١ ـ حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما:

أخرجه البخاري (١ / ٩٤ و١٣ / ٢٨٢ ـ فتح)، والرواية الثانية له في الموضع الثاني، ومسلم (١٦ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ـ نووي)، وغيرهما.

٢ ـ حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه:

أخرجه الطبراني في «الأوسط»؛ كما في «مجمع الفوائد» (١ / ١٠١)، وابن تيمية في «الأربعين»؛ كما في «مجموع الفتاوى» (١٨ / ١١٤)؛ من طريق العلاء بن سليمان عن الزهري عن أبي سلمة عنه به.

قلت: وهٰذا إسناد حسن، رجاله ثقات؛ غير العلاء بن سليمان، فإنه صدوق.

٣ ـ حديث عائشة ـ رضي الله عنها:

أخرجه البزَّار (١ / ٢٣٣ ـ كشف الأستار)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥ / ٣١٢ ـ ٣١٣)؛ من طرق عن عروة عنها به.

قلت: وإسناده صحيح.

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ في «جامع بيان العلم» (١ / ١٨٤):

«أنشدني أحمد بن عمر بن عبدالله لنفسه في قصيدة له:

نَسْأَلُ اللهَ صَلاَحاً ... لِلْوُلاةِ الرُّؤَسَاءِ

فَصَلاحُ الدِّين والدُّنـ ... ـيا صَلاحُ الأمَرَاءِ

فَيِهِمُ يَلْتَئِمُ الشَّمْـ ... ـلُ على بُعْدِ الثَّنَاءِ

وبِهِمْ قَامَتْ حُدُودُ الـ ... ـلهِ في أَهْلِ العِدَاءِ

وهُمُ المُغْنُونَ عَنَّا ... فِيْ مَوَاطِيْنِ العَنَاءِ =

اللهمَّ بَلى؛ لا تَخْلو الأرضُ مِن قائمٍ للهِ بحُجَّةٍ؛ لِئلاّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبَيِّناتُهُ، أُولٰئِكَ هُم الأقلُّونَ عَدَداً، الأعْظَمونَ عندَ اللهِ قَدْراً، بهِم يَدْفَعُ اللهُ عنْ حُجَجِهِ حتَّى يُؤَدُّوها إلى نُظَرَائِهِم، ويَزْرَعوها في قُلوبِ أَشْباهِهِم، هَجَمَ بِهِمُ العلمُ على حَقيقةِ الأمْرِ، فاسْتَلانوا ما اسْتَوْعَرَ منهُ المُتْرَفونَ، وأَنِسوا بما اسْتَوْحَشَ منهُ الجَاهِلونَ، صَحِبُوا الدُّنْيا بأَبْدانٍ أَرْواحُهَا مُعلَّقَةٌ بالمَنْظَرِ الأعْلى، أُولٰئِكَ خُلَفاءُ اللهِ[١٣] في بِلادِهِ، ودُعاتُهُ إلى دِينِهِ[١٤].

هاه هاه! شوقاً إلى رُؤيَتِهِم، وأَستَغْفِرُ اللهَ لي ولَكَ، إذا شِئْتَ؛ فَقُمْ[١٥].

= وذَهَابُ العِلْمِ عَنَّا ... في ذَهَابِ العُلَماءِ

فهُمُ أَرْكانُ دِينِ الـ ... ـلهِ في الأرْضِ الفَضاءِ

فَجَزَاهُمْ رَبُّهُمْ عَنْـ ... ـنَا بِمَحْمُودِ الجَزاءِ

(١٣) في هٰذا التعبير نكارة، ولا يصح فيه حديث مرفوع.

(١٤) قال ابن أبي العز الحنفي في «الاتباع» (ص ٨٦):

«ثم ذكر خلفاء الرسل القائمين بحجج الله وبيناته، وهم المتَّبعون للدليل، حيث كان العاملون به، وذكر أنهم قليلون في الوجود».

(١٥) أخرجه أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١ / ٧٩ ـ ٨٠)، ومن طريقه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٤٩ ـ ٥٠)، والشجري في «الأمالي الخميسية» (ص ٦٦).

قلت: وقد رأيت أهل العلم بالحديث يثنون عليه ويثبتونه، منهم:

١ ـ الخطيب البغدادي، حيث قال في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٥٠):

«هٰذا الحديث من أحسن الحديث معنى، وأشرفها لفظاً». =

. . . .



= ٢ ـ ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١١٢):

«وهو حديث مشهور عند أهل العلم، يستغني عن الإسناد؛ لشهرته عندهم».

قلت: ونقله عنه ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٩٥)، وابن أبي العز الحنفي في «الاتباع» (ص ٨٥ ـ ٨٦).

٣ ـ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٩ / ٤٧):

«وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله: «القلوب أوعية فخيرها أوعاها»، وهو طويل، قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات، وفيه مواعظ، وكلام حسن ـ رضي الله عن قائله».

٤ ـ واحتج به الإمام الشاطبي في كتابه الفذ المستطاب «الاعتصام» (٢ / ٣٥٨).

وَصِيَّةُ سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ
إلى عَبَّادِ بنِ عَبَّادٍ الخَوَّاصِ الأرسوفيِّ

كتبَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ[1] ـ رحمه الله ـ إلى عَبَّادِ بنِ عَبَّادٍ الخَوَّاصِ[2] ـ رحمه الله ـ فقالَ:

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّكَ في زَمانٍ كانَ أَصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَعَوَّذُونَ أَنْ يُدْرِكوهُ، ولهُمْ مِن العِلْمِ ما لَيْسَ لنا، ولهُمْ مِن القَدَمِ ما لَيْسَ لنا، فكيفَ بِنا حينَ أَدْرَكْناهُ على

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري؛ نسبة إلى ثور بن عبد مناة وليس ثور هَمْدان، من أوعية العلم، وجبال الحفظ، وإذا ذكر العلماء؛ فسفيان كوكب دُرِّيٌّ.

ترجمته مشهورة طفحت بها كتب الجرح والتعديل والتواريخ والفقه، وأخباره مستفيضة منتشرة، لكن أذكر هنا بعض المظان التي أوعبت في ترجمته:

«تهذيب الكمال» (١١ / ١٥٤)، «الطبقات الكبرى» (٦ / ٣٧١)، «تاريخ بغداد» (٩ / ١٥١)، «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٢٢٩).

وقد كتب له أبو نُعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٦ / ٣٥٦ ـ ٧ / ١٤٤)، ترجمة رائعة غنية لم تر عيني مثلها، إليها تضرب أكباد المطي.

(٢) ستأتي ترجمته.

قِلَّةِ عِلْمٍ ، وقِلَّةِ صَبْرٍ، وقِلَّةِ أَعْوانٍ عَلى الخَيْرِ، وفَسادٍ مِن النَّاسِ ، وكَدَرٍ مِن الدُّنْيا؟!

فعليكَ بالأمْرِ الأوَّلِ ، والتَّمَسُّكِ به[3]، وعليكَ بالخُمولِ ، فإنَّ هٰذا زَمَنُ الخُمولِ[4]، وعليكَ بالعُزْلَةِ، وقِلَّةِ مُخالَطَةِ النَّاسِ ، فإذا كانَ النَّاسُ

---

(٣) هٰذا النفس الزكي موروث عن أصحاب النبي ﷺ الذين تواتر عنهم الحض على الاتباع والتمسُّك بالأمر العتيق؛ كالذي صحَّ عن ابن أم عبد ـ رضي الله تعالى عنه:

«اتَّبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كُفيتم، [وكل بدعة ضلالة]».

أخرجه وكيع في «الزهد» (٣١٥)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص ٢٠٢)، والدارمي في مقدمة «سننه» (١ / ٦٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩ / ١٥٤)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (٢٠٤)، وغيرهم.

وهو صحيح لطرقه؛ كما بينته في «البدعة» (٢٢)، الطبعة الثالثة.

وما بين المعكوفتين زيادة عند أحمد والطبراني، وهي صحيحة.

(٤) والرجل الخامل هو الخفي الذي لا يُذْكَر ولا يُعْرَف، وهي علامة تقوى، ودليل صلاح؛ لأنه لم يزل المخلصون خائفين من الرياء، ولذلك اجتهدوا في مخادعة الناس؛ لصرف نظرهم عن أعمالهم الصالحة، وحرصوا على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على فواحشهم، كل ذٰلك رجاء أن يَخْلُص عملُهم؛ ليجازيهم الله ـ تعالى ـ يوم القيامة بإخلاصهم.

وأهل الخير لن يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها، ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله ـ تعالى ـ فرُّوا عنها، وكانوا يؤثرون عدم الظهور؛ لأنه يورث الغرور، ثم يقصم الظهور.

أخرج الإمام مسلم (١٨ / ١٠ ـ نووي)، والبغوي في «شرح السنة» (١٥ / ٢١ ـ ٢٢)، والسياق له، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: =

إذا الْتَقَوْا؛ يَنْتَفِعُ بعضُهُمْ ببَعْضٍ، فأَمَّا اليومَ؛ فقدْ ذَهَبَ ذاكَ، والنَّجاةُ في تَركِهِمْ فيما نَرَى(٥).

وإِيَّاكَ والأمراءَ أَنْ تَدْنُوَ منهُم وتُخالِطَهُم في شيءٍ مِن الأشْياءِ، وإِيَّاكَ أَنْ تُخْدَعَ، فيُقالَ لَكَ: تَشْفَعُ، وتَدْرَأُ عنْ مَظْلُومٍ، أَو تَرُدُّ مَظْلَمَةً، فإِنَّ ذٰلك خَديعةُ إِبْليسَ، وإِنَّما اتَّخَذَها فُجّارُ القُرّاءِ سُلَّماً(٦).

= كان سعد بن أبي وقاص في إبل له وغنم، فأتاه عمر ابنه، فلما رآه؛ قال: أعوذ بالله من شر هٰذا الراكب. فلما انتهى إليه؛ قال: يا أبتِ! أرضيتَ أن تكونَ أعرابياً في إبلك وغنمك، والناس بالمدينة يتنازعون في الملك؟!

قال: فضرب صدرَهُ بيده، وقال: اسكتْ يا بني! إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ:

«إنَّ الله يحب العبد التقي النقيَّ الخفي».

وعلى ذٰلك؛ فمراد سفيان بالخمول وزمنه هو كتمان العمل، وليس المراد العجز والكسل، فتنبه، ولا تكن من الكسالى العاجزين.

يدلُّكَ على ذٰلك أمران:

١ ـ صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

٢ ـ ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذُ بالله من العجز والكسل.

(٥) مرادُهُ بالعزلة قلة الاختلاط بالناس؛ لأنه لم يعد ينتفعُ بعضهم ببعض.

وليس مراده اعتزال الناس بالكلية، فإذا فعل الدعاة ذٰلك؛ فمتى يتعلم الجاهل، ويهتدي الحائر، ويؤوب الظالم لنفسه؟!

ولا شك أن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم له أجر عظيم.

(٦) قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في «تلبيس إبليس» (ص ١٢١ ـ ١٢٢): =

. . . .

= «ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين، ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم، مع القدرة على ذٰلك.

وربما رخَّصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه؛ لينالوا من دنياهم عرضاً، فيقع بذٰلك الفساد؛ لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير؛ يقول: لولا أني على صواب؛ لأنكر عليَّ الفقيه، وكيف لا أكونُ مصيباً وهو يأكُلُ مِن مالي؟!

الثاني: العامي؛ أنه يقول: لا بأس بهٰذا الأمير، ولا بماله، ولا بأفعاله؛ فإن فلاناً الفقيه لا يبرح عنده.

الثالث: الفقيه؛ فإنه يفسد دينه بذٰلك.

وقد لبس إبليس عليهم في الدخول على السلطان، فيقول: إنما ندخل لنشفعَ في مسلم.

وينكَشِفُ هٰذا التلبيس بأنه لو دخل غيره يشفع؛ لما أعجَبَهُ ذٰلك، وربما قدح في ذٰلك الشخص؛ لتفرده بالسلطان...

وفي الجملة، فالدخول على السلاطين خطر عظيم؛ لأن النية قد تحسُن في أول الدخول، ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم، أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم، وترك الإنكار عليهم.

وقد كان سفيان الثوري ـ رضي الله عنه ـ يقول:

ما أخافُ مِن إهانتهم لي، إنما أخافُ مِن إكرامهم، فيميل قلبي إليهم»X.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «شرح حديث (ما ذئبان جائعان)» (ص ٥٣):

«وقد كان كثير من السلف ينهَوْن عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً.

ومِمن نهى عن ذٰلك عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري، وغيرهم. =

. . . .

= وقال ابن المبارك:

«ليس الآمر الناهي عندنا مَن دخل عليهم، فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم».

وسبب هٰذا ما يُخشى من فتنة الدخول عليهم، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيداً أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريباً؛ مالت النفس إليهم؛ لأن محبة الشرف كامنة في النفس له، ولذٰلك يداهنهم ويلاطفهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولا سيما إن لاطفوه، وأكرموه، وقَبِلَ ذٰلك منهم.

وقد جرى ذٰلك لعبد الله بن طاوس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاووس، فوبَّخه طاوس على فعله ذٰلك.

وكتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد، وكان في كتابه: (إياك والأمراء أن تدنو منهم، أو تخالطهم في شيء من الأشياء. . . إلخ)».

قال علامة الأندلس ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» **(١ / ١٨٥ ـ ١٨٦)** خاتماً الباب الذي ذكر فيه ذم السلف للدخول على الأمراء والسلاطين:

«معنى هٰذا الباب كله في السلطان الجائر الفاسق، فأما العدل منهم الفاضل؛ فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألا ترى أن عمر بن عبدالعزيز إنما كان يصحبه جلة العلماء؛ مثل عروة بن الزبير وطبقته، وابن شهاب وطبقته.

وقد كان ابن شهاب يدخل إلى السلطان عبدالملك وبنيه بعده.

وكان ممَّن يدخل على السلطان: الشعبيُّ، وقبيصة، وابن ذؤيب، ورجاء بن حَيْوة الكندي، وأبو المقدام ـ وكان عالماً فاضلاً، والحسن، وأبو الزناد، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والشافعي، وجماعة يطول ذكرهم.

وإذا حضر العالم عند السلطان **غبّاً فيما فيه الحاجة**، وقال خيراً، ونطق بالعلم؛ كان حسناً، وكان في ذٰلك رضوان الله إلى يوم يلقاه، **ولكنها مجالسُ الفتنةُ** =

وكانَ يُقالُ: اتَّقُوا فِتْنَةَ العابِدِ الجاهِلِ، والعالِمِ الفَاجِرِ؛ فإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ[٧].

وما لَقيتَ مِن المَسْأَلَةِ والفُتْيا؛ فاغْتَنِمْ ذٰلك، ولا تُنافِسْهُم فيهِ[٨].

وإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ كَمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْمَلَ بقَوْلِهِ، أَو يُنْشَرَ قولُهُ، أَوْ يُسْمَعَ قَوْلُهُ، فإِذا تُرِكَ ذاكَ منهُ؛ عُرِفَ فيهِ[٩].

= **فيها أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها».**

قلت: صدقوا وبرُّوا ونصحوا ـ رحمهم الله ـ فقد كانوا كالنذير العريان الذي لا يكذب أهله، وكيف لا يكونون كذٰلك وهم يسمعون قول رسول الله ﷺ:

«مَن أتى السلطان؛ افتتن».

أخرجه أبو داود (**٢٨٥٩**)، والترمذي (**٢٢٥٦**)، والنسائي (**٧ / ١٩٥ ـ ١٩٦**)، وأحمد (**١ / ٣٥٧**)، وغيرهم؛ من طريق سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس.

وإسناده ضعيف؛ لأن أبا موسى مجهول.

ولكن له إسناد آخر عند البيهقي في «شعب الإيمان» (**٣ / ٢ / ٢٤٨**)، فبه يتقوّى إن شاء الله.

وله شاهدان خرجتهما في «الرياء ذمه وأثره السيىء في الأمة» (ص **٣٤**).

وبهما يصحُّ الحديث، والحمد لله.

(**٧**) انظر «تهذيب الكمال» (**١١ / ١٦٨**).

(**٨**) انظر رسالتي «الرياء ذمه وأثره السَّيىء في الأمة» (ص **٣١ ـ ٣٢**).

(**٩**) هٰذا هو الرياء، وقد شرحتُ القول في أسبابه وأبوابه وأنواعه وآثاره وعلاجه في رسالتي الموسومة بـ«الرياء ذمه وأثره السيِّىء في الأمة»، فلتنظر، فهي مطبوعة متداولة نشرتها مكتبة ابن الجوزي.

وإيَّاكَ وحُبَّ الرِّئاسَةِ؛ فإنَّ الرَّجُلَ تَكونُ الرِّئاسةُ أَحَبَّ إليهِ مِن الذَّهَبِ والفِضَّـةِ، وهُـو بابٌ غامِضٌ، لا يُبْصِرُهُ إلا العُلَماءُ السَّماسِرَةُ[10]، فتَفَقَّدْ نَفْسَكَ، واعْمَلْ بِنِيَّـةٍ، واعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ دَنا مِن النَّاسِ أَمْرٌ يَشْتَهي الرَّجُلُ أَنْ يَمُوتَ.

والسَّلامُ[11].



(١٠) أنشد ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١ / ١٤٣ ـ ١٤٤) أبياتاً في هٰذا الباب، فقال:

حُبُّ الـرِّياسَـةِ دَاءٌ يَخْـلُقُ الـدُّنْيا ... ويَجْـعَـلُ الـحُـبَّ حَرْبـاً للمُحِبِّيْنـا
يَفْـرِي الحَـلاَقِمَ والأَرْحَـامَ يَقْـطَعُهـا ... فلا مُروءَةَ يُبْـقِـي لا ولا دِيْنـا
مَن سَادَ بالجَهْلِ أَوْ قَبْلَ الرُّسُوخِ فَلا ... تَراهُ إلا عَدُوّاً للمُـحِـقِّـيْنـا
يَبْغِـي ويَحْـسُـدُ قَوْمـاً وهُـو دُونَهُمُ ... ضَاهَـى بذلـكَ أَعْـداءَ النَّـبِيِّينـا

وانـظر ما كتبه في هٰذا الباب، فإنه نفيس، لو رحل إليه طالب العلم مسيرة شهر؛ لكان من الفائزين.

(١١) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٦ / ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، وذكر قسماً منها ابن رجب في «شرح حديث (ما ذئبان جائعان)» (ص ٥٣ ـ ٥٤)، وكذٰلك أوردها الذهبي في ترجمة سفيان في «سير أعلام النبلاء».

وهي وصية مشهورة متداولة لدى أهل العلم، فقد قال الحافظ المزي ـ رحمه الله ـ في «تهذيب الكمال» (١٤ / ١٤٣) أثناء ترجمة عباد بن عباد:

«وكـان من فضـلاء أهل الشام وعبَّادهم، **وكتب إليه سفيان الثوري الرسالة المشهورة في الوصايا والآداب والحكم والأمثال والمواعظ**».

وَصِيَّةُ عبَّادِ بنِ عَبَّادٍ الخَوَّاصِ
إلى أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ

عن عبَّادِ بنِ عبَّادٍ الخَوَّاصِ الشَّامِيِّ أَبو عُتبةَ[1] قالَ:

أَمَّا بعدُ:

اعْقِلُوا، والعقـلُ نِعمَةٌ [وإنَّهُ يوشِكُ أَنْ يَكونَ حَسْرةً][2]، فربَّ ذي عَقْلٍ قد شَغَلَ قلبَهُ بالتَّعَمُّقِ فيما هو عليهِ ضررٌ عن الانتِفاعِ بِما يَحْتاجُ إليهِ، حتى صارَ عن ذٰلكَ سَاهِياً.

ومِن فَضْلِ عَقْلِ المرءِ تَرْكُ النَّظَرِ فيما لا نَظَرَ فيهِ حتى يكونَ فَضْلُ

---

(١) من فضلاء أهل الشام وعبَّادهم، وثقَّه يحيى بن معين، ويعقوب بن سفيان الفسوي، وغيرهم.

مصادر ترجمته:

«تاريخ الدارمي» (٤٩٥)، «المعرفة والتأريخ» للفسوي (٢ / ٤٣٧)، «حلية الأولياء» (٨ / ٢٨١ ـ ٢٨٢)، «تهذيب الكمال» (١٤ / ١٣٤ ـ ١٣٦).

(٢) زيادة من «حلية الأولياء» (٨ / ٢٨٢)، و«تهـذيب الكمـال» (١٤ / ١٣٥)، وبها يستقيم السياق.

عقلِهِ وَبالاً عليهِ في تركِ مناقشةِ مَن هُو دُونَهُ في الأعمالِ الصَّالِحَةِ، أَو رجلٌ شَغَلَ قَلبَهُ ببدعةٍ قَلَّدَ فيها دينَه رجالاً دونَ أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، أَو اكْتَفى برأْيِهِ فيما لا يَرَى الهُدَى إلا فيها، ولا يَرَى الضَّلالَةَ إلا تَرْكَها؛ بزعْمِ أَنَّهُ أَخَذَها مِن القرآنِ، وهُو يَدْعو إلى فِراقِ القُرْآنِ.

أَفَما كانَ للقُرآنِ حَمَلَةٌ قَبْلَهُ وقبلَ أَصحابِهِ يعمَلونَ بمُحْكَمِهِ، ويؤمِنونَ بمتشابِهِهِ؟! وكانوا مِنهُ على مَنارٍ أَوْضَحَ للطَّريقِ.

وكانَ القرآنُ إمامَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إماماً لأصحابِهِ، وكانَ أَصْحابُهُ أَئِمَّةً لِمَن بعْدَهُم؛ رِجالٌ معروفونَ منسوبونَ في البُلدانِ، متَّفِقونَ في الرَّدِّ على أَصحابِ الأهواءِ، مع ما كانَ بيْنَهُم مِن الاخْتِلافِ[3]، وتَسَكُّعِ أَصحابِ الأهواءِ برأْيِهِمْ في سُبُلٍ مُختلِفَةٍ جائرَةٍ عنِ القصدِ، مُفارِقَةٍ للصِّراطِ المُسْتَقيمِ، فتوَهَّتْ بهِم أَدْلاؤهُم في مَهامِهَ[4] مُضِلَّة، فأَمْعَنُوا فيها مُتَعَسِّفينَ في هَيْآتِهِم، كُلَّما أَحْدَثَ لهُمُ الشَّيْطانُ بدعةً في ضلالَتِهِمْ؛ انْتَقَلوا منها إلى غَيْرِها؛ لأَنَّهُم لم يَطْلُبوا أَثَرَ السَّالِفينَ، ولَمْ يَقْتَدوا بالمُهاجِرينَ.

وقد ذُكِرَ عنْ عُمَرَ أَنَّهُ قالَ لزيادٍ:

«هلْ تَدْرِي ما يَهْدِمُ الإسلامَ؟ زَلَّةُ عالِمٍ، وجِدالُ مُنافِقٍ بالقُرْآنِ،

---

(٣) في الأصل: «الاختلاق»، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) المفازة البعيدة، والبلد المقفر.

وأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ»[٥].

اتَّقُوا اللهَ وما حَدَثَ في قُرَّائِكُم وأَهْلِ مساجِدِكُمْ مِن الغِيْبَةِ والنَّميمَةِ[٦] والمَشْيِ بينَ النَّاسِ بوَجْهَيْنِ ولسانَيْنِ.

وقدْ ذُكِرَ أَنَّ مَن كانَ ذا وجْهَيْنِ في الدُّنْيا؛ كانَ ذا وجْهَيْنِ في النَّارِ[٧].

---

(٥) أخرجه الدارمي (١ / ٧١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٢٣٤)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٧٥)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١١٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٤ / ١٩٦)، وغيرهم؛ من طريقين عن زياد.

قلت: وهو صحيح.

تنبيه: في المصادر الآنفة زياد بن حُدَيْر؛ غير «الحلية»، ففيها زياد بن جرير، وهو تصحيف.

وله ترجمة في «الطبقات الكبرى» (٦ / ١٣٠)، و«تاريخ ابن معين» برواية الدوري (٢ / ١٧٧)، و«تهذيب الكمال» (٩ / ٤٤٩ ـ ٤٥١)، و«الإصابة» (١ / ٥٨٠)، وغيرها.

ووثَّقه أبو حاتم الرازي؛ كما في «الجرح والتعديل» (٣ / ٥٢٩).

(٦) وانظر رسالتي «النميمة ذمها وأثرها السَّيِّءُ في الأمة».

(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٧٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨٨)، والدارمي (٢ / ٣١٤)، وابن حبان (١٩٧٩ ـ موارد)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ١٤٦)، وغيرهم؛ من طريق شريك عن الركين عن نعيم بن حنظلة عن عمار قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن كان له وجهان في الدنيا؛ كان له يوم القيامة لسانان من نار».

قال علي بن المديني؛ كما في «التهذيب» (١٠ / ٤٦٣):

«إسناده حسن».

وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٣ / ١٥٨): =

. . . .

= «سند حسن».

قلت: فيه شَريك، وهو ابن عبدالله النخعي القاضي، سيىء الحفظ.

وله شواهد:

١ ـ حديث أنس ـ رضي الله عنه:

وله عنه ثلاث طرق:

الأولى: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٨٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٣)، والبزار (٢٠٢٥ ـ كشف الأستار)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ١٦٠)؛ من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن وقتادة عن أنس به.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨ / ٩٥):

«فيه إسماعيل بن داود المكي، وهو ضعيف».

الثانية: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٩ ـ مجمع البحرين)، وفيه قال الهيثمي (٨ / ٩٥):

«وفيه مقدام بن داود، وهو ضعيف».

الثالثة: أخرجه الخطيب البغدادي (١٢ / ١٠٣) من طريق أبي حفص العبدي عن ثابت عن أنس به.

قلت: أبو حفص هو عمر بن حفص؛ ضعيف.

٢ ـ حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه:

أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥ / ٤٧٦ / ١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٢٧٢).

قلت: وسنده ضعيف.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح بمجموع هٰذه الطرق والشواهد.

وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص، وجندب بن عبدالله البجلي، وأسانيدها واهية بمرة، فلا يعتضد بها.

يَلْقـاكَ صاحِبُ الغِيْبَـةِ، فيَغْتابُ عندَكَ مَن يَرَى أَنَّكَ تُحِبُّ غِيْبَتَهُ، ويُخالِفُكَ إلى صاحِبِكَ، فيَأْتِيْهِ عنكَ بمِثْلِهِ، فإذا هُو قَدْ صَابَ عندَ كُلِّ واحدٍ منكُما حاجَتَهُ، وخَفِيَ على كُلِّ واحدٍ منكُمَا ما يأْتِي عندَ صاحِبِهِ.

حُضورُهُ عنْدَ مَن حَضَرَ حُضورُ الإخْوانِ، وغِيْبَتُهُ عَنْ مَن غَابَ عنهُ غِيْبَةُ الأعْداءِ.

مَن حَضَرَ منهُمْ؛ كانَتْ لهُ الأثَرَةُ، ومَنْ غابَ منهُمْ؛ لَمْ تَكُنْ لهُ حُرمةٌ.

يَغْبِنُ مَنْ حَضَرَهُ بالتزْكِيَةِ، ويَغْتابُ مَنْ غَابَ عنهُ بالغِيْبَةِ.

فَيا لَعِبادِ اللهِ! أَما في القَوْمِ مِن رَشِيْدٍ ولا مُصْلحٍ، بهِ يُقْمَعُ هٰذا عَنْ مَكِيدَتِهِ، ويَرُدُّهُ عنْ عِرْضِ أَخيهِ المُسْلِمِ؟!

بلْ عَرَفَ هَواهُمْ فيما مَشَى بهِ إليهِمْ، فاسْتَمْكَنَ منهُم، وأَمْكَنوهُ مِن حاجَتِهِ، فأَكَلَ بدينِهِ معَ أَدْيانِهِم.

فاللهَ اللهَ! ذُبُّـوا عن حُرَمِ أَعيانِكُم، وكُفُّوا أَلسِنَتَكُمْ عنهُم؛ إلا مِن خيرٍ، وناصِحوا اللهَ في أُمَّتِكُم إذْ كنتُمْ حَمَلَةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، فإِنَّ الكتابَ لا يَنْطِقُ حتى يُنْطَقَ بهِ، وإِنَّ السُّنَّةَ لا تَعْمَلُ حتَّى يُعْمَلَ بها.

فمَتَى يتَعَلَّمُ الجاهِلُ إذا سَكَتَ العالِمُ، فلمْ يُنْكِرْ ما ظَهَرَ، ولم يأْمُرْ بما تُرِكَ؟!

وقد أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا يَكْتُمونَهُ.

[كـأَنَّـهُ لا يعلمُـه إخـوانكُم، إنْ أَرْضَـوْكُمْ؛ لَمْ تُنَاصِحُوهُم، وإِنْ

أَسْخَطوكُمْ؛ أَغْنَيْتُموهُم، فلا أَنْتُم وَرِعْتُم في السُّخْطِ، ولا أَنْتُم ناصَحْتُموهُم في الرِّضا].

اتَّقوا الله فإِنَّكُم في زمانٍ رَقَّ فيهِ الوَرَعُ، وقلَّ فيهِ الخُشوعُ، وحَمَلَ العلمَ مُفْسِدوهُ، فأَحَبُّوا أَنْ يُعْرَفوا بحمْلِهِ، وكَرِهوا أَنْ يُعْرَفوا بإِضاعتِهِ، فنَطَقوا فيهِ بالهَوَى؛ لما أَدْخَلوا فيهِ مِن الخَطَإِ، وحَرَّفوا الكَلِمَ عمَّا تَرَكوا مِنَ الحَقِّ إِلى ما عَمِلوا بهِ مِن الباطِلِ، فذُنُوبُهُم ذُنوبٌ [لا][8] يُسْتَغْفَرُ منها، وتَقْصِيْرُهُم لا يُعْتَرَفُ بهِ.

كيفَ يَهْتَدي المستَدِلُّ المُسْتَرْشِدُ إذا كانَ الدَّليلُ حائراً؟!

أَحَبُّوا الدُّنيا، وكَرِهوا منزلةَ أَهْلِها، فشارَكُوهُم في العيشِ، وزَايَلُوهُم بالقَوْلِ، ودَافَعُوا بالقَوْلِ عن أَنْفُسِهِمْ أَنْ يُنْسَبُوا إِلى عَمَلِهِمْ، فلَمْ يَتَبَرَّؤوا ممَّا انْتَفَوْا منهُ، ولم يَدْخُلوا فيما نَسَبُوا إِليهِ أَنْفُسَهُم؛ لأَنَّ العامِلَ بالحقِّ متكلِّمٌ وإِنْ سكَتَ، وقد ذُكِرَ أَنَّ الله ـ تَعالى ـ يَقولُ:

«إِنِّي لستُ كُلَّ كَلامِ الحَكيمِ أَتَقَبَّلُ، ولكنِّي أَنْظُرُ إِلى هَمِّهِ وهَواهُ؛ فإِنْ كانَ همُّهُ وهَواهُ لي؛ جعلْتُ صَمْتَهُ حَمداً ووَقاراً، وإِنْ لم يَتَكَلَّمْ».

قالَ الله تَعالى:

﴿**مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوهَا** ـ لم يَعْمَلوا بها ـ **كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً** ـ كُتُباً ـ﴾[9].

---

(٨) زيادة من «الحلية» و«تهذيب الكمال» وبها يستقيم المعنى.

(٩) الجمعة: ٥.

وقالَ:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[10].

قال: العَمَلُ بما فيه.

ولا تَكْتَفُوا مِن السُّنَّةِ بانْتِحالِها بالقَوْلِ دونَ العَمَلِ بها؛ فإنَّ انْتِحالَ السُّنَّةِ دونَ العَمَلِ بها كَذِبٌ بالقَوْلِ مع إضاعَةِ العلمِ.

ولا تَعِيْبُوا بالبِدَعِ تَزَيُّناً بعَيْبِها؛ فإنَّ فسادَ أَهْلِ البِدَعِ ليسَ بزائِدٍ في صَلاحِكُمْ، ولا تَعِيْبُوها بَغْياً على أَهْلِها؛ فإنَّ البَغْيَ مِن فَسادِ أَنْفُسِكُمْ.

وليسَ يَنْبَغِي للمُطَبِّبِ أَنْ يُداوِيَ المَرْضَى بما يُبْرِئُهُمْ وَيُمْرِضُهُ، فإنَّهُ إذا مَرِضَ؛ اشْتَغَلَ بمَرَضِهِ عن مُداواتِهِمْ، ولكنْ يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَمِسَ لنَفْسِهِ الصِّحَّةَ؛ لِيَقْوَى على عِلاجِ المَرْضَى.

فلْيَكُنْ أَمْرُكُم فيما تُنْكِرونَ على إخْوانِكُمْ نَظَراً منكُم لأنفُسِكُمْ، ونَصيحَةً منكُمْ لربِّكُمْ، وشَفَقَةً منكُمْ على إخْوانِكُمْ، وأَنْ تَكُونوا ـ مَعَ ذلك ـ بِعُيوبِ أَنْفُسِكُم أَعْنَى بعُيوبِ غَيْرِكُم، وأَنْ يَسْتَفْطِمَ بعْضُكُم بعضاً النَّصِيحَةَ، وأَنْ يَحْظَى عندكُمْ مَنْ بَذَلَها لكُمْ وقَبِلَها مِنْكُم، وقدْ قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ـ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ:

«رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إليَّ عُيُوبِي».

تُحِبُّونَ أَنْ تَقُولُوا فيُحْتَمَلَ لكُمْ، وإنْ قيلَ لكم مِثْلُ الذي قُلْتُم؛

---

(10) البقرة: 63.

غَضِبْتُم، تَجِدونَ على النَّاسِ فيما تُنْكِرونَ مِن أُمُورِهِمْ، وتأْتُونَ مِثلَ ذلك، أَفلا تُحِبُّونَ أَنْ يُؤخَذَ عليكُمْ؟!

اتَّهموا رأيَكُمْ ورأيَ أَهْلِ زمانِكُمْ، وتَثَبَّتُوا قبلَ أَنْ تَكَلَّموا، وتَعَلَّموا قبلَ أَنْ تُعَلِّموا، فإِنَّهُ يأْتي زمانٌ يَشْتَبِهُ فيهِ الحَقُّ والباطِلُ، ويكونُ المَعْروفُ فيهِ مُنْكَراً، والمُنْكَرُ فيهِ معروفاً، فمنكُمْ مقتَرِبٌ إِلى اللهِ بما يُباعِدُهُ، ومتحَبِّبٌ إِليهِ بما يُبْغِضُهُ عليهِ، قالَ اللهُ ـ تعالى:

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾(١١)... الآية.

فعليكُمْ بالوُقوفِ عند الشُّبُهات، حتى يبرُزَ لكُم واضِحُ الحَقِّ بالبَيِّنَةِ، فإِنَّ الدَّاخِلَ فيما لا يعْلَمُ بغيرِ علمٍ آثِمٌ، ومَن نَظَرَ لله؛ نَظَرَ الله لهُ.

وعليكُمْ بالقُرآنِ، فَأْتَمُّوا به، وأُمُّوا بهِ، وعليكُمْ بطَلَبِ أَثَرِ المَاضِينَ فيهِ.

ولو أَنَّ الأَحْبارَ والرُّهبانَ لم يَتَّقوا زَوالَ مَراتِبِهِمْ وفَسادَ مَنْزِلَتِهِمْ بإِقامَةِ الكتابِ وتِبْيانِه؛ ما حَرَّفوهُ ولا كَتَمُوهُ، ولكِنَّهُمْ لَمَّا خالَفوا الكِتابَ بأَعْمَالِهِمُ؛ الْتَمَسوا أَنْ يَخْدَعوا قَوْمَهُم عمَّا صَنَعُوا؛ مَخافَةَ أَنْ تَفْسُدَ مَنازِلُهُم، وأَنْ يتبَيَّنَ للنَّاسِ فَسادُهُم، فحَرَّفوا الكِتابَ بالتَّفْسِير، وما لَمْ يَسْتَطِيعوا تَحْرِيفَهُ؛ كَتَمُوهُ، فسَكَتوا عنْ صَنيعِ أَنْفُسِهِمْ؛ إِبقاءً على مَنازِلِهِم، وسَكَتُوا عمَّا صَنَعَ قومُهُم؛ مُصانَعَةً لهُم.

---

(١١) فاطر: ٨.

ولقدْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا يَكْتُمونَهُ، بل مَالوا عليهِ، ورَفقوا لهُمْ فيهِ[12].



(١٢) أخرجه الدارمي (١ / ١٦٠ ـ ١٦٣): أخبرنا عبدالملك بن سليمان أبو عبدالرحمٰن الأنطاكي بتمامه.

وأخـرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨ / ٢٨٢)، ومن طريقه المزي في «تهذيب الكمال» (١٤ / ١٣٥ ـ ١٣٦): حدثنا أبو محمد بن حيان: ثنا محمد بن يحيى: ثنـا إبـراهيم بن أبي أيوب: ثنا محمد بن عمرو الغَزِّي: سمعت أبا مسلم الصوري يقول: كتب عباد بن عباد الخواص إلى إخوانه يعظهم: (وذكره مختصراً).

وَصِيَّةُ عُتْبَةَ بنِ غَزْوانَ

قالَ خَالِدُ بنُ عُمَرَ العَدَوِيُّ:

خَطَبَنَا عُتْبَةُ بنُ غَزْوانَ(١)، فحَمِدَ الله، وأَثْنَى عليهِ، ثُمَّ قالَ:

أَمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ الدُّنْيا قدْ آذَنَتْ(٢) بِصُرْمٍ(٣)، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ(٤)، ولمْ يَبْقَ منها إلا

(١) صاحب رسول الله ﷺ، من السابقين الأولين، شهد بدراً والمشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان أحد الرماة المذكورين، ومن الأمراء الغزاة، وهو الذي اختطَّ البصرة وأنشأها.

ترجمته في:

«حلية الأولياء» (١ / ١٧٠ ـ ١٧١)، و«تاريخ بغداد» (١ / ١٥٥ ـ ١٥٧)، و«العقد الثمين» (٦ / ١١ ـ ١٢)، و«الإصابة» (٢ / ٤٥٥)، و«أسد الغابة» (٣ / ٤٦١ ـ ٤٦٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١ / ٣٠٤ ـ ٣٠٦).

(٢) أعلمت.

(٣) الانقطاع والذهاب.

(٤) مسرعة.

صُبابَةٌ[٥] كَصُبابَةِ الإناءِ، يَتَصابُّها[٦] صاحِبُها، وإنَّكُمْ مُنْتَقِلونَ إلى دَارٍ لا زَوَالَ لها؛ فانْتَقِلوا بخَيْرِ ما بحَضْرَتِكُم؛ فإنَّهُ قدْ ذُكِرَ لنا أَنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِن شَفَةِ جَهَنَّمَ، فيَهْوي فيها سَبْعينَ عَاماً لا يُدْرِكُ لَها قَعْراً[٧].

ووالله لَتُمْلأَنَّ. أَفَعَجِبْتُم؟!

ولقدْ ذُكِرَ لنا أَنَّ ما بينَ مِصْراعَيْنِ مِن مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسيْرَةُ أَربَعينَ سنةً، ولَيَأْتِيَنَّ عليها يَوْمٌ وهُو كَظِيظٌ[٨] من الزِّحامِ.

ولقد رأَيْتُني سابِعَ سبعَةٍ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، وما لَنا طعامٌ إلا وَرَقُ الشَّجَرِ، حتى قَرُحَتْ أَشْداقُنا[٩]؛ فالتَقَطْتُ بردةً، فشَقَقْتُها بَيْني وبَينَ سَعْدِ ابنِ مالكٍ[١٠]، فاتَّزَرْتُ بنِصْفِها، واتَّزَرَ سعدٌ بنِصْفِها، فما أَصْبَحَ اليومَ مِنَّا أَحَدٌ إلا أَصْبَحَ أميراً عَلى مِصْرٍ مِن الأمْصارِ.

وإنِّي أَعوذُ باللهِ أَنْ أَكونَ في نَفْسي عَظِيماً وعندَ اللهِ صَغيْراً.

وإنَّها لم تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إلا تَنَاسَخَتْ حتى يَكونَ آخِرُ عاقِبَتِها مُلْكاً؛ فسَتَخْبُرُونَ وتُجَرِّبونَ الأمراءَ بعْدَنا[١١].

---

(٥) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء.

(٦) يشربها.

(٧) قعر الشيء: أسفله.

(٨) الممتلىء.

(٩) صار فيها قروح وجراح من خشونة الورق الذي نأكله ومرارته.

(١٠) هو سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه.

(١١) أخرجه مسلم (٨ / ١٠٢ ـ نووي).

وَصِيَّةُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ لِعَلِيِّ بنِ الحَسَنِ

قالَ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ لعَلِيِّ بنِ الحَسَنِ فيما يُوصيهِ:

يا أَخِي! عليكَ بالكَسْبِ الطَّيِّبِ، وما تَكْسِبُ بيدِكَ، وإيَّاكَ وأَوْساخَ النَّاسِ[1] أَنْ تَأْكُلَهُ أَو تَلْبَسَهُ، فإنَّ الذي يأْكُلُ أَوْساخَ النَّاسِ مَثَلُهُ مَثَلُ عِلِّيَةٍ لرجلٍ وسُفْلَهُ ليس له، فهو لا يزالُ على خَوْفٍ أَنْ يَقَعَ سُفْلَهُ، وتتهَدَّمَ عِلِّيَّتُهُ.

فالذي يأْكُلُ أَوساخَ النَّاسِ هُو يَتَكَلَّمُ بِهَوىً، ويَتَواضَعُ للنَّاسِ مَخافَةَ أَنْ يُمْسِكوا عنهُ.

ويا أَخي! إن تناوَلْتَ مِن النَّاسِ شيئاً؛ قَطَعْتَ لسانَكَ، وأَكْرَمْتَ بعضَ النَّاسِ، وأَهَنْتَ بعْضَهُم، معَ ما ينْزِلُ بكَ يومَ القيامَةِ، فإنَّ الذي يُعْطيكَ شَيْئاً مِن مالهِ؛ فإنَّما هُو وَسَخُهُ، وتفْسيرُ وسَخِهِ: تَطْهيرُ عملِهِ مِن الذُّنوبِ.

وإنْ أَنتَ تناوَلْتَ مِن النَّاسِ شيئاً؛ إنْ دَعَوْكَ إلى مُنْكَرٍ؛ أَجَبْتَهُم، وإنَّ

(١) هي الصدقات.

الذي يأْكُلُ أَوساخَ النَّاسِ كالرجلِ لهُ شُركاءُ في شيءٍ، يَنْبَغي لهُ أَنْ يُقاسِمَهُم.

يا أَخي! جوعٌ وقليلٌ مِن العبادةِ خيرٌ من أَنْ تَشْبَعَ من أَوساخِ النَّاسِ، وكثيرٍ مِن العِبادَةِ.

وقد بَلَغَنا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ:

«لو أَنْ أَحَدَكُمْ أَخَذَ حَبْلاً، ثمَّ احْتَطَبَ حتَّى يدبرَ ظهْرُهُ؛ كانَ خيراً لهُ مِن أَنْ يَقومَ على رأْسِ أَخيهِ؛ يسأَلُهُ، أَو يَرْجوهُ»(٢).

وبَلَغَنا أَنَّ عمرَ بنَ الخَطابِ قالَ:

«مَن عَمِلَ منكُمْ؛ حَمَدْناهُ، ومَن لَمْ يَعْمَلِ؛ اتَّهَمْناهُ».

وقالَ:

«يا مَعْشَرَ القُرَّاءِ! ارْفَعوا رؤوسَكُم، ولا تَزيدوا الخُشوعَ على ما في القَلْبِ، اسْتَبِقوا في الخَيْراتِ، ولا تَكُونوا عِيالاً على النَّاسِ، فقدْ وَضَحَ الطَّريقُ».

وقالَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ:

«إِنَّ الذي يَعيشُ مِن أَيْدي النَّاسِ؛ كالذي يَغْرِسُ شجرَةً في أَرْضِ غيرِهِ».

فاتَّقِ الله يا أَخي! فإِنَّهُ ما نالَ أَحَدٌ مِن النَّاسِ شيئاً إِلا صارَ حَقيراً ذَليلاً

(٢) أخرجه البخاري.

عندَ النَّاسِ ، والمؤمِنونَ شُهودُ اللهِ في الأرضِ .

وإيَّاكَ أَنْ تَكْسِبَ خَبيثاً فتُنْفِقَهُ في طاعَةِ اللهِ ؛ فإِنَّ تركَهُ فَريضةٌ مِن اللهِ واجبةٌ، وإِنَّهُ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّباً .

أَرَأَيْتَ رجلاً أَصابَ ثوبَهُ بولٌ، ثمَّ أَرادَ أَنْ يطَهِّرَهُ، فغَسَلَهُ ببولٍ آخَرَ؟! أَتَرى كانَ ذٰلك يطَهِّرُهُ؟! كلا! إِنَّ القَذَرَ لا يُطَهِّرُ إلا بطيِّبٍ، فكذٰلك لا تُمْحَى السيئةُ إلا بالحسنَةِ، وإِنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا الطَّيِّبَ، وإِنَّ الحَرامَ لا يُقْبَلُ في شيءٍ مِن الأعْمالِ .

أو هَلْ عَمِلَ أَحَدٌ ذَنباً فمَحاهُ بذَنْبٍ[٣]؟!



(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧ / ٧١ ـ ٧٢) .

كِتابُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ في القَضاءِ لأبي موسى الأشْعَرِيِّ

عن إدْريسَ أَبي عبدِ اللهِ بنِ إدْريسَ قالَ:

أَتَيْتُ سَعيدَ بنَ أَبي بُرْدَةَ، فسأَلْتُه عَنْ رَسائِلِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ التي كانَ يَكْتُبُ بها إلى أَبي مُوسى الأشْعَرِيِّ - وكانَ أَبو مُوسى قدْ أَوْصَى إلى أَبي بُرْدَةَ - وأَخْرَجَ إليَّ كتاباً[1]، فرأَيْتُ في كتابٍ منها:

أَمَّا بعدُ:

فإنَّ القضـاءَ فريضـةٌ مُحْكَمَـةٌ، وسنَّـةٌ مُتَّبَعَـةٌ[2]، فافهَمْ إذا أُدْلِيَ

---

(١) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٨٦):
«وهذا كتاب جليل، تلقاه العلماء بالقبول، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه».

(٢) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٨٦):
«يريد به أن ما يحكم به الحاكم نوعان:
أحدهما: فرض غير منسوخ؛ كالأحكام الكلية التي أحكمها الله في كتابه.
والثاني: أحكام سنها رسول الله ﷺ».

إليكَ؛ فإنَّه لا ينفَعُ تَكَلُّمٌ بحَقٍّ لا نَفاذَ لهُ(٣ و ٤).

(٣) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٨٧):

«صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعْطِيَ عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامُه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المُنعَم عليهم، الذين حسُنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم. . .

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق؛ إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط بها علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حُكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هٰذا الواقع.

ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده، واستفرغ وسعه في ذٰلك؛ لم يعدم أجرين أو أجراً.

فالعالم مَن يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله؛ كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبرٍ إلى معرفة براءته وصدقه، وكما توصل سليمان ـ صلى الله عليه ـ بقوله: «ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما» إلى معرفة عين الأم، وكما توصل أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته: «لتُخْرِجنَّ الكتاب أو لنجرِّدَنَّكِ» إلى استخراج الكتاب منها، وكما توصل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله ﷺ حتى دلّهم على كنز حُيي، لمّا ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق؛ بقوله: «المال كثير، والعهد أقرب من ذٰلك»، وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم، فإن ظهر، وإلا ضرب من اتهمهم كما ضربهم، وأخبر =

واسِ بينَ الاثنَيْنِ في مجلِسِكَ، ووجهِكَ؛ حتَّى لا يَطْمَعَ شَرِيفٌ في حَيْفِكَ، ولا يَأْيَسَ وَضيعٌ مِن عَدْلِكَ(٥).

= أن هٰذا حكم رسول الله ﷺ.

ومَن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة؛ وجدها طافحة بهٰذا، ومَن سلك غير هٰذا؛ أضاع على الناس حقوقهم، ونسبه إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله.

وقوله: «فما أُدلي إليك»، أي: ما توصل به إليك من الكلام الذي تحكم به بين الخصوم، ومنه قولهم: أدلى فلان بحجته، وأدلى بنسبه، ومنه قوله ـ تعالى: ﴿**ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ وتُدْلُوا بِها إلى الحُكَّامِ**﴾، أي: تضيفوا ذٰلك إلى الحكام وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هٰذا المعنى؛ لقيل: وتُدْلوا بالحكام إليها، وأما الإدلاء بها إلى الحكام؛ فهو التوصل بالبرطيل إليهم، فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين، فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً».

(٤) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٨٩):

«ولاية الحق: نفوذُهُ، فإذا لم ينفذ؛ كان ذٰلك عزلاً له عن ولايته، فهو بمنزلة الوالي العدل الذي في توليته مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فإذا عزل عن ولايته؛ لم ينفع، ومراد عمر بذٰلك التحريض على تنفيذ الحق إذا فهمه الحاكم، ولا ينفع تكلمه به إن لم يكن له قوة تنفيذه، فهو تحريض منه على العلم بالحق، والقوة على تنفيذه، وقد مدح الله ـ سبحانه ـ أولي القوة في أمره والبصائر في دينه، فقال:

﴿**واذْكُرْ عِبادَنا إبْراهِيْمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ أُولي الأيْدِي والأبْصارِ**﴾.

فالأيدي: القُوَى على تنفيذ أمر الله، والأبصار: البصائر في دينه».

(٥) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٨٩): =

الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يَتَلَجْلَجُ في صَدْرِكَ، ويُشْكِلُ عليكَ؛ ما لَمْ يَنْزِلْ في الكتابِ، ولَمْ تَجْرِ بهِ سُنَّةٌ.

واعْـرِفِ الأشبـاهَ والأمْثالَ، ثُمَّ قِسِ الأمورَ بعْضَها ببعْضٍ، فانْظُر أقْرَبَها إلى اللهِ، وأشْبَهَها بالحَقِّ، فاتَّبِعْهُ، واعْمَدْ إليهِ[٦].

= «إذا عدل الحاكم في هٰذا بين الخصمين؛ فهو عنوان عدله في الحكومة، فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه، أو القيام له، أو بصدر المجلس، والإقبال عليه، والبشاشة له، والنظر إليه؛ كان عنوان حيفه وظلمه.

وقد رأيت في بعض التواريخ القديمة أن أحد قضاة العدل في بني إسرائيل أوصاهم إذا دفنوه أن ينبشوا قبره بعد مدة، فينظروا هل تغير منه شيء أم لا؟ وقال: إني لم أجُرْ قط في حكم، ولم أُحابِ فيه، غير أنه دخل عليَّ خصمان كان أحدهما صديقاً لي، فجعلت أصغي إليه بأذني أكثر من إصغائي إلى الآخر، ففعلوا ما أوصاهم به، فرأوا أذنه قد أكلها التراب، ولم يتغير جسده.

وفي تخصيص أحد الخصمين بمجلس أو إقبال أو إكرام مفسدتان:

إحداهما: طمعه في أن تكون الحكومة له، فيقوى قلبه وجنانه.

والثانية: أن الآخر ييأس من عدله، ويضعف قلبه، وتنكسر حجته».

(٦) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ١٣٠ ـ ١٣١):

«هٰذا أحد ما اعتمد عليه القياسون في الشريعة، وقالوا: هٰذا كتاب عمر إلى أبي موسى، ولم ينكره أحد من الصحابة، بل كانوا متفقين على القول بالقياس، وهو أحد أصول الشريعة، ولا يستغني عنه فقيه.

وقد أرشد الله ـ تعالى ـ عباده إليه في غير موضع من كتابه، فقاس النشأة الثانية على النشـأة الأولى في الإمكـان، وجعل النشأة الأولى أصلاً، والثانية فرعاً عليها، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات، وقاس الخلق الجديد الذي أنكره أعداؤه على خلق السماوات والأرض، وجعله من قياس الأوْلى؛ =

لا يَمْنَعْكَ قَضاءُ قَضَيْتَهُ بالأمْسِ ، راجَعْتَ فيهِ نفْسَكَ، وهُدِيْتَ فيهِ لرُشْدِكَ، فإنَّ مُراجَعَةَ الحَقِّ خيرٌ مِن التَّمادِي في البَاطِلِ (٧).

المُسْلِمونَ عُدولٌ بعْضُهُمْ على بعْضٍ ؛ إلا مَجْلوداً حَدّاً، أو مجرَّباً عليهِ شَهادَةُ زُورٍ، أو ظَنِيناً في وَلاءٍ قَرابةٍ(٨).

= كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأوْلى، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم، وضرب الأمثال، وصرَّفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية، ينبِّه بها عباده على أن حكمَ الشيء حكمُ مثله، فإن الأمثال كلَّها قياسات، يُعلم منها حكم الممثل من الممثل به، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلاً، تتضمن تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحكم.

وقال تعالى: ﴿**وتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمُونَ**﴾، فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل، وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين، وإنكار التفريق بينهما، والفرق بين المختلفين، وإنكار الجمع بينهما».

(٧) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ١١٠):

«يريد أنك إذا اجتهدت في حكومة، ثم وقعت لك مرة أخرى، فلا يمنعك الاجتهاد الأول من إعادته، فإن الاجتهاد قد يتغير، ولا يكون الاجتهاد الأول مانعاً من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحق، فإن الحق أولى بالإيثار؛ لأنه قديم سابق على الباطل، فإن كان الاجتهاد الأول قد سبق الثاني، والثاني هو الحق؛ فهو أسبق من الاجتهاد الأول؛ لأنه قديم سابق على ما سواه، ولا يبطله وقوع الاجتهاد الأول على خلافه، بل الرجوع إليه أولى من التمادي على الاجتهاد الأول».

(٨) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ١١١):

«لما جعل الله ـ سبحانه ـ هٰذه الأمة أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس ـ والوسط: العدل الخيار؛ كانوا عدولاً بعضهم على بعض؛ إلا من قام به مانع =

واجْعَـلْ لِمَنِ ادَّعى حَقّاً غائِباً أَمَداً يَنْتَهِي إِليهِ، أَو بيِّنَةً عادِلَةً؛ فإِنَّهُ أَثْبَتُ للحُجَّةِ، وأَبْلَغُ في العُذْرِ، فإِنْ أَحْضَرَ بيِّنَةً إِلى ذٰلك الأَجَلِ؛ أَخَذَ بحَقِّهِ، وإِلا وَجَّهْتَ عليهِ القضاءَ: البَيِّنَةُ عَلى مَنِ ادَّعى، واليَمِيْنُ عَلى مَنْ أَنْكَرَ[٩].

= الشهادة، وهو أن يكون قد جُرِّب عليه شهادة الزور، فلا يوثق بعد ذٰلك بشهادته، أو من جلد في حد؛ لأن الله ـ سبحانه ـ نهى عن قبول شهادته، أو متهم بأن يجر إلى نفسه نفعاً من المشهود له؛ كشهادة السيد لعتيقه بمال، أو شهادة العتيق لسيده إذا كان في عياله، أو منقطعاً إليه يناله نفعه، وكذٰلك شهادة القريب لقريبه لا تقبل مع التهمة، وتقبل بدونها، هٰذا هو الصحيح».

(٩) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ٩٠ ـ ٩١):

«البينة في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة اسم لكل ما يبيِّن الحق، فهي أعم من البينة في اصطلاح الفقهاء، حيث خصوها بالشاهدين، أو الشاهد واليمين.

ولا حجـر في الاصطلاح ما لم يتضمن حمل كلام الله ورسوله عليه، فيقع بذٰلك الغلط في فهم النصوص، وحملها على غير مراد المتكلم منها.

وقد حصل بذٰلك للمتأخرين أغلاط شديدة في فهم النصوص، ونذكر من ذٰلك مثالاً واحداً، وهو ما نحن فيه من لفظ (البينة)، فإنها في كتاب الله اسم لكل ما يبين الحق؛ كمـا قال ـ تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّنَاتِ**﴾، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلا رِجـالاً نُوْحِيْ إليْهِمْ فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ . بالبَيِّنَاتِ**﴾، وقال: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ إلا مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ**﴾، وقال: ﴿**قُلْ إنِّي على بَيِّنَةٍ مِنْهُ**﴾، وقال: ﴿**أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الأوْلَى**﴾.

وهٰـذا كثير، لم يختص لفظ البينة بالشاهدين، بل ولا استعمل في الكتاب فيهما ألبتة.

إذا عرف هٰذا؛ فقول النبي ﷺ للمدَّعي: «ألك بيِّنة؟»، وقول عمر: «البيِّنةُ =

إنَّ اللهَ ـ تَبارَكَ وتَعالى ـ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ(١٠)، ودَرَأَ عنكُمُ الشُّبُهاتِ.

= على المُدَّعي»، وإن كان هٰذا قد روي مرفوعاً، المراد به: ألك ما يبين الحق من شهود أو دلالة؟ فإن الشارع في جميع المواضع يقصد ظهور الحق بما يمكن ظهوره به من البينات التي هي أدلة عليه وشواهد له، ولا يرد حقاً قد ظهر بدليله أبداً، فيضيع حقوق الله وعباده، ويعطلها.

ولا يقف ظهور الحق على أمر معين لا فائدة في تخصيصه به، مع مساواة غيره في ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحاً لا يمكن جحده ودفعه؛ كترجيح شاهد الحال على مجرد اليد في صورة من على رأسه عمامة، وبيده عمامة، وآخر خلفه مكشوف الرأس يعدو أثره، ولا عادة له بكشف رأسه، فبينة الحال ودلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدَّعي أضعاف ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد.

فالشارع لا يهمل مثل هٰذه البينة والدلالة، ولا يضيع حقاً يعلم كلُّ أحد ظهوره وحجته.

بل لمَّا ظنَّ هٰذا مَن ظَنَّهُ؛ ضيعوا طريق الحكم، فضاع كثير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفاجر ممكَّناً من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم عليَّ بذٰلك شاهدان اثنان؟! فضاعت حقوق كثيرة لله ولعباده، وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الإمارة والسياسة ما يحفظ به الحق تارة، ويضيع به أخرى، ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المغنية عن التفريط والعدوان».

(١٠) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ١٢٩):

«يريد بذٰلك أن من ظهرت لنا منه علانية خير؛ قبلنا شهادته، ووكلنا سريرته إلى الله ـ سبحانه، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل أحكام الدنيا على السرائر، بل على الظواهر، والسرائر تبع لها، وأما أحكام الآخرة؛ فعلى السرائر، والظواهر تبع لها. =

وإيَّاكَ والغَلَقَ، والضَّجَرَ، والتَّأَذِّيَ بالنَّاسِ [11]، والتَّنَكُّرَ للخَصْمِ في مَجالِسِ القَضاءِ التي يوجِبُ الله فيها الأجْرَ، ويُحْسِنُ فيها الذُّخْرَ[12].

= وقد احتج بعض أهل العراق بقول عمر هذا على قبول شهادة كل مسلم لم تظهر منه ريبة، وإن كان مجهول الحال، فإنه قال: «والمسلمون عدول، بعضهم على بعض»، ثم قال: «فإن الله ـ تعالى ـ تولى من عباده السرائر، وستر عليهم الحدود»، ولا يدل كلامه على هذا المذهب».

(١١) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٧٥ ـ ١٧٦):
«هذا الكلام يتضمن أمرين:

أحدهما: التحذير مما يحول بين الحاكم وبين كمال معرفته بالحق، وتجريد قصده له؛ فإنه لا يكون خير الأقسام الثلاثة إلا باجتماع هذين الأمرين فيه، والغضب والقلق والضجر مضاد لهما؛ فإن الغضب غول العقل، يغتاله كما تغتاله الخمر.

والأمر الثاني: التحريض على تنفيذ الحق، والصبر عليه، وجعل الرضا بتنفيذه في موضع الغضب، والصبر في موضع القلق والضجر، والتحلي به واحتساب ثوابه في موضع التأذي؛ فإن هذا دواء ذلك الداء الذي هو من لوازم الطبيعة البشرية وضعفها، فما لم يصادفه هذا الدواء؛ فلا سبيل إلى زواله، هذا مع ما في التنكر للخصوم من إضعاف نفوسهم، وكَسْر قلوبهم، وإخراس ألسنتهم عن التكلم بحججهم؛ خشية معرة التنكر، ولا سيما أن يتنكر لأحد الخصمين دون الآخر، فإن ذلك الداء العُضَال». أ. هـ. باختصار.

(١٢) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٧٦ ـ ١٧٧):
«هذا عبودية الحكام ووُلاة الأمر التي تُرَاد منهم، ولله ـ سبحانه ـ على كل أحد عبودية بحسب مرتبته؛ سوى العبودية العامة التي سَوَّى بين عباده فيها:

فعلى العالم من عبوديته نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره. =

= وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه مَن هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي.

وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير.

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلَّم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هٰذا واجب قد وُضِع عنا. فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب. فقالت: صدقت، جزاك الله خيراً.

وقد غرَّ إبليسُ أكثرَ الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هٰذه العبوديات، فلم يحدِّثوا أنفسهم بالقيام بها، وهٰؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا ـ رحمه الله ـ في بعض تصانيفه، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه يعلم أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً، والله المستعان.

فأي دين وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنْتَهَكُ، وحُدودُهُ تُضاعُ، ودينُه يُتْرَك، وسنة رسول الله ﷺ يُرْغَبُ عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس؛ كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق.

وهل بلية الدين إلا من هٰؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم؛ فلا مُبالاة بما جرى على الدين؟! وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله؛ بذل وتبذَّل، وجَدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار =

مَن حَسُنَتْ نِيَّتُهُ، وخَلُصتْ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ ؛ كفاهُ اللهُ ما بينَهُ وبينَ النَّاسِ [١٣].

= الثلاثة بحسب وُسْعِهِ.

وهٰؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم ؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل».

(١٣) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٧٨ - ١٨٠):

«هٰذا شقيق كلام النبوة، وهو جدير بأن يخرج من مشكاة المحدَّثِ المُلْهَمِ، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومَن أحسن الإنفاق منهما؛ نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع:

فأما الكلمة الأولى ؛ فهي منبع الخير وأصله.

والثانية أصل الشر وفصله.

فإن العبد إذا خلصت نيته لله - تعالى - وكان قصده وهمه وعمله لوجهه - سبحانه؛ كان الله معه، فإنه - سبحانه - مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق.

والله - سبحانه - لا غالب له، فمن كان معه؛ فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟! فإن كان الله مع العبد؛ فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه؛ فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله ؛ لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال؛ لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً.

وإنما يُؤْتَى العبدُ من تفريطه وتقصيره في هٰذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل ؛ لم يُنصر، وإن نُصِرَ نصراً عارضاً؛ فلا عاقبة =

= له، وهو مذموم مخذول.

وإن قام في حق، لكن لم يقم فيه لله، وإنما قام لطلب المَحْمَدَة والشكور والجزاء من الخلق، أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه؛ فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصِرَ؛ فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل؛ فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً؛ كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مُبْطلاً؛ لم تكن له عاقبة.

وإذا قام العبد في الحق لله، ولكن قام بنفسه وقوته، ولم يقم بالله، مستعيناً به، متوكلاً عليه، مفوضاً إليه، بَرياً من الحَوْل والقوة إلا به؛ فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك.

ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء ألبتة، وصاحبه مؤيد منصور، ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء.

والعبد إذا عزم على فعل أمر؛ فعليه أن يعلم أولاً هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة؛ فلا يفعله؛ إلا أن يكون مُباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة، فإذا بان له أنه طاعة؛ فلا يُقْدِمُ عليه حتى ينظر هل هو مُعانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعاناً عليه؛ فلا يقدم عليه، فيذل نفسه، وإن كان مُعاناً عليه؛ بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غير بابه؛ أضاعه، أو فرط فيه، أو أفسد منه شيئاً.

فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**﴾.

فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، ، وأشقاهم من =

والصُّلْحُ جائِزٌ فيما بينَ النَّاسِ ؛ إلا مَا أَحَلَّ حَراماً، أَوْ حَرَّمَ حَلالاً(١٤).

= عدم الأمور الثلاثة. ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبُهُ من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معدوم أو ضعيف، فهٰذا مخذول مَهين محزون. ومنهم من يكون نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قوياً، ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضعيفاً أو مفقوداً، فهٰذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة. ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً؛ كحال كثير من العباد والزهاد الذين قلَّ علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

وقول عمر رضي الله عنه: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه» إشارة إلى أنه لا يكفي قيامه في الحق لله إذا كان على غيره، حتى يكون أول قائم به على نفسه، فحينئذ يقبل قيامه به على غيره، وإلا فكيف يقبل الحق ممن أهمل القيام به على نفسه؟!

وخطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان، فقال: أيها الناس! ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع. فقال عمر: ولم يا أبا عبدالله؟ قال: إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك ثوبان! فقال: لا تعجلْ يا عبدالله. يا عبدالله. فلم يجبه أحد. فقال: يا عبدالله بنَ عمر! فقال: لبَّيْكَ يا أمير المؤمنين. فقال: نشدتك الله الثوب الذي ائتزت به أهو ثوبك؟ قال: نعم، اللهم نعم. فقال سلمان: أما الآن فقل نسمع».

(١٤) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (١ / ١٠٩):

«والصلح الذي يُحِلُّ الحرام ويحرِّم الحلال؛ كالصلح الذي يتضمن تحريم بضع حلال، أو إحلال بضع حرام، أو إرقاق حر، أو نقل نسب أو ولاء عن محل إلى محل، أو أكل رباً، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذٰلك، فكل هٰذا صلح جائر مردود. =

ومَن تَزَيَّنَ للنَّاسِ بما يَعْلَمُ اللهُ منهُ غيرَ ذٰلك؛ شانَهُ اللهُ(١٥)، فما ظَنُّكَ

= فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضى الله ـ سبحانه، ورضى الخصمين، فهٰذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالماً بالوقائع، عارفاً بالواجب، قاصداً للعدل، فدرجة هٰذا أفضل من درجة الصائم القائم».

(١٥) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٨٠ ـ ١٨١):
«لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص ـ فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه ـ عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعَجَّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس؛ عَجَّل للمتزيِّن بما ليس فيه من عقوبته أن شَانَهُ الله بين الناس؛ لأنه شان باطنه عند الله، وهٰذا موجب أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وحكمته في قضائه وشرعه.

هٰذا، ولما كان مَن تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنُّسُكِ والعلم وغير ذٰلك قد نصبَ نفسه للوازم هٰذه الأشياء ومقتضياتها؛ فلا بد أن تطلب منه، فإذ لم توجد عند؛ افْتُضح، فيشينه ذٰلك من حيث ظن أنه عنده.

وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر الله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم؛ جزاءً له من جنس عمله.

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق.

قالوا: وما خشوع النفاق؟

قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع.

وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن من الإيمان.

فعُلم أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام، وأشفاه للسقام».

بثَوابِ غَيْرِ اللهِ في عاجِلِ دُنْيا وآجِلِ آخرَةٍ[١٦]؟!

---

(١٦) قال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٨٢ ـ ١٨٣):

«يريد به تعظيم جزاء المخلص، وأنه رزقٌ عاجل إما للقلب، أو للبدن، أو لهما، ورحمته مدَّخرة في خزائنه، فإن الله ـ سبحانه ـ يجزي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولا بد، ثم في الآخرة يوفيه أجره؛ كما قال تعالى: ﴿**وإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُوركُمْ يَوْمَ القِيامَةِ**﴾.

فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة؛ ليس جزاء توفية، وإن كان نوعاً آخر كما قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿**وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه آتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذٰلك أجر توفية.

وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيراً أجرين: عمله الدنيا، ويكمل له أجره في الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿**للذينَ أَحْسَنُوا في هٰذهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ ولَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقِيْنَ**﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿**والذينَ هَاجَرُوا في اللهِ مِن بعْدِ مَا ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنْيا حَسَنَةً ولأجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لو كانُوا يَعْلَمونَ**﴾، وقال في هٰذه السورة: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وهُو مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بأَحْسَنِ ما مَا كَانوا يَعْمَلونَ**﴾، وقال فيها عن خليله: ﴿**وآتَيْنَاهُ في الدُّنْيا حَسَنَةً وإنَّهُ في الآخِرَةِ لمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

فقد تكرر هٰذا المعنى في هٰذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسرٍّ بديع، فإنه سورة النعم التي عدد الله ـ سبحانه ـ فيها أصول النعم وفروعها، فعرَّف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هٰذه بما لا يُدْرَكُ تفاوته، وأن هٰذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن إطاعوه؛ زادهم إلى هٰذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية.

وقال تعالى: ﴿**وأَنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ** =

والسَّلامُ(١٧).

= مُسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾، فلهٰذا قال أمير المؤمنينَ: «فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟! والسلام».

فهٰــذا بعض ما يتعلق بكتــاب أمير المؤمنين ـ رضي الله عنـه ـ من الحكم والفوائد، والحمد لله رب العالمين».

(١٧) أخـرجـه وكيع في «أخبـار القضاة» (١ / ٧٠ ـ ٧٣ و٢٨٣ ـ ٢٨٤)، والدارقطني (٤ / ٢٠٧)، وأخرج البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ١١٩) جزءاً منه؛ من طريق سفيان بن عيينة: نا إدريس الأودي به.

قلت: وهٰذا إسناد رجاله ثقات، لكنه منقطع؛ لأن سعيد بن أبي بردة تابعي صغير لم يدرك عمر.

لكن قولَه: «هٰذا كتاب عمر» وِجادةٌ، وهي وجادة صحيحة، من أصح الوجادات.

وأخرجه البيهقي (١٠ / ١٥٠) من طريق جعفر بن برقان عن معمر البصري عن أبي العوام البصري قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ.

قلت: إسناده إلى أبي العوام صحيح، وأما أبو العوام؛ ففي الرواة ثلاثة؛ كلهم يكنى بأبي العوام، وكلهم بصريون، وهم:

١ ـ فائد بن كيسان الجزار؛ مولى باهلة.

٢ ـ عبد العزيز بن الربيع الباهلي.

٣ ـ عمران القطان.

ولم يتبيَّن لي مَن هو المراد هنا، وكلهم ثقات؛ إلا الأول؛ من أتباع التابعين.

فالإسناد معضل.

وأخرجه الدارقطني (٤ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧) من طريق عيسى بن يونس: نا عبيدالله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري. =

. . . .



= قلتُ: هذا إسناد ضعيف جداً؛ لأن عبيد الله بن أبي حميد متروك؛ كما في «التقريب».

وقد تساهل الزيلعي في «نصب الراية» (٤ / ٨٢)، فقال: «ضعيف».

وعزاه صاحب «كنز العمال» (٥ / ٨٠٦ - ٨٠٧) إلى ابن عساكر، والبيهقي، والدارقطني.

قلت: وهو كتاب عظيم، تلقاه علماء الأمة بالقبول؛ كما نص على ذلك ابن قيم الجوزية الذي تولى تفسيره في كتابه القيم «إعلام الموقعين»، حيث أفاض في ذلك حتى قيل: إن «إعلام الموقعين» شرح لكتاب عمر بن الخطاب في القضاء.

وقد ذكره كثير من العلماء والمؤرخين والأدباء في كتبهم؛ كالجاحظ في «البيان والتبيين»، وابن قتيبة في «عيون الأخبار»، والماوردي في «الأحكام السلطانية»، وابن خلدون في «المقدمة».

وقد حاول بعض المستشرقين - وخاصة مرجيليوث - التشكيكَ في صحة الكتاب، ولكن دون ذلك خرط القتاد.

وَصِيَّةُ وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ
في مَكارِمِ الأخْلاقِ

قالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ(1):

إذا أَرَدْتَ أَنْ تَعْمَلَ بطاعةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ؛ فاجْتَهِدْ في نُصْحِكَ وعلمِكَ لله ؛ فإنَّ العملَ لا يُقْبَلُ مِمَّنْ ليس بناصِحٍ ، وإنَّ النُّصْحَ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يكْمُلُ إلا بطاعةِ اللهِ ؛ كمَثَلِ الثمرةِ الطيبةِ ؛ ريحُها طَيِّبٌ ، وطعْمُها طَيِّبٌ ؛ كذلك مَثَلُ طاعةِ اللهِ ؛ النُّصْحُ رِيحُها ، والعَمَلُ طَعْمُها .

ثمَّ زَيِّنْ طاعَةَ اللهِ بالعلمِ ، والحلْمِ ، والفِقْهِ .

ثمَّ أَكْرِمْ نفسكَ عن أَخلاقِ السُّفهاءِ ، وعَبِّدْها على أَخلاقِ العُلماءِ ، وعَوِّدْها على فِعْلِ الحُلَماءِ ، وامْنَعْها عَمَلَ الأشْقِياءِ ، وأَلْزِمْها سِيرةَ الفُقهاءِ ، واعْزِلْها عن سُبُلِ الخُبَثاءِ .

وما كانَ لكَ مِن فَضْلٍ ؛ فأَعِنْ بهِ مَنْ دونَكَ ، وما كانَ فيمَنْ دُونَكَ مِن

---

(1) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني من ثقات التابعين .
له ترجمة في «تهذيب التهذيب» (١١ / ١٦٦) ، و «حلية الأولياء» (٤ / ٢٣) .

نقْصٍ ؛ فأَعِنْهُ عليهِ حتى تُبْلِغَهُ معكَ ؛ فإنَّ الحكيمَ يجْمَعُ فضولَهُ، ثم يعودُ بها على مَن دُونَهُ، ثم ينظُرُ في نَقائِصِ مَنْ دُونَهُ، ثمَّ يُقَوِّمُها ويُزْجِيها حتى يُبْلِغَهُ:

إنْ كانَ فقيهاً؛ حَمَلَ مَن لا فِقْهَ له، إذا رأَى أَنَّه يُريدُ صُحْبَتَهُ ومَعونَتَهُ.

وإذا كانَ لهُ مالٌ؛ أَعْطى منهُ مَن لا مالَ لهُ.

وإنْ كانَ مُصْلِحاً؛ اسْتَغْفَرَ الله للمُذْنِبِ، إذا رَجَا توبَتَهُ.

وإنْ كانَ مُحْسِناً؛ أَحْسَنَ إلى مَنْ أَساءَ إليهِ، واسْتَوْجَبَ بذلكَ أَجْرَهُ.

ولا يغترُّ بالقولِ حتى يجيءَ معهُ الفِعْلُ، ولا يَتَمَنَّى طاعةَ اللهِ إذا لَمْ يَعْمَلْ بها.

فإذا بَلَغَ مِن طاعَةِ اللهِ شيئاً؛ حَمِدَ اللهَ، ثم طَلَبَ ما لَمْ يَبْلُغْ منها، وإذا عَلِمَ مِن الحِكْمَةِ؛ لم تُشْبِعْهُ حتى يتعَلَّمَ ما لَمْ يَبْلُغْ منها.

وإذا ذَكَرَ خَطيئَتَهُ؛ سَتَرَها عنِ النَّاسِ، واستَغْفَرَ اللهَ الذي هُو القَادِرُ على أَنْ يغْفِرَها.

ثم لا يَسْتَعينُ على شيءٍ مِن قَوْلِهِ بالكَذِبِ؛ فإنَّ الكَذِبَ في الحَديثِ مثلُ الأكَلَةِ في الخشبةِ؛ يُرى ظاهِرُها صحيحاً وجوفُها نَخِراً، لا يزالُ مَن يغْتَرُّ بها يَظُنُّ أَنَّها حاملةٌ ما عليها حتى تَنْكَسِرَ على مَا فيها، ويَهْلِكَ مَن اغْتَرَّ بها، وكذلك الكَذِبُ في الحديثِ، لا يَزالُ صاحِبُهُ يغْتَرُّ بهِ، ويظُنُّ أَنَّهُ معينُهُ على حاجَتِهِ، وزائدٌ له في رغبتِهِ؛ حتى يُعْرَفَ ذلكَ منهُ، ويَتَبَيَّنَ لذوي

العُقـولِ غُرورُهُ، ويَسْتَنْبِطَ العلماءُ ما كانَ يَسْتَخْفي بهِ عنهُم، فإذا اطَّلَعوا على ذاكَ من أَمْـرِهِ، وتبيَّنَ لهُم؛ كَذَّبـوا خَبَـرَهُ، وأَبادوا شَهادَتَهُ، واتَّهَموا صِدْقَهُ، واحتَقَروا شأْنَهُ، وأَبْغَضوا مجلِسَهُ، واسْتَخْفَوا منهُ بسرائِرِهِمْ، وكَتَموا حَديثَهُم، وصَـرَفـوا عنهُ أَمانَتَهُم، وغَيَّبُوا عنهُ أَمْرَهُم، وحَزروهُ على دينِهِم ومَعيشَتِهِم، ولم يُحْضِروهُ شيئاً من محاضِرِهِم، ولم يأْمَنوهُ على شيءٍ مِن سِرِّهِم، ولم يُحَكِّموهُ في شيءٍ ممَّا شَجَرَ بينَهُم[٢].



(٢) أخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٣٦ ـ ٣٧).

وَصِيَّةُ عَوْنِ بنِ عبدِ اللهِ الهُذَليِّ لابنِهِ في محاسَبَةِ النَّفْسِ

قالَ عونُ بنُ عبدِاللهِ[1] لابنِه وهُو يَعِظُهُ:

يا بنيَّ! كُنْ ممَّن نأْيُهُ عمَّنْ نَأَى عنهُ يقينٌ ونَزاهَةٌ، ودُنُوُّه ممَّنْ دَنا منهُ لينٌ ورحمةٌ، ليس نأْيُهُ بكِبرٍ ولا بعظَمَةٍ، ولا دُنُوُّهُ خداعٌ ولا خِلابَةٌ[2]، يقتدي بمَن قبلَه، فهو إمامٌ لمن بعدَهُ، ولا يَعْزُبُ[3] علمُه، ولا يحضُرُ جهلُهُ، ولا يعجَلُ فيما رابَهُ، ويَعْفو فيما يتَبَيَّنُ لهُ، يُغْمِضُ في الذي لهُ، ويَزيدُ في الحَقِّ الذي عليهِ، والخيرُ منهُ مأْمولٌ، والشَّرُّ منهُ مأْمونٌ، إنْ كانَ مَعَ الغافِلينَ؛ كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرينَ، وإنْ كانَ مَعَ الذَّاكِرينَ؛ لَمْ يُكْتَبْ منَ الغافِلينَ، لا يغرُّهُ ثناءُ مَن جَهِلَهُ، ولا ينسى إحصاءَ ما قدْ عَلِمَهُ، إنْ زُكِّيَ؛ خافَ ما يَقولونَ،

(١) هو عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي، من ثقات التابعين، ويعد في قراء أهل الكوفة وعبادهم.

ترجمته في: «تهذيب التهذيب» (٨ / ١٧١)، و«حلية الأولياء» (٤ / ٢٤٠)، وغيرها.

(٢) الخديعة باللسان.

(٣) يغيب.

واسْتَغْفَرَ لما لا يَعْلَمونَ؛ يقولُ: أَنا أَعلَمُ بي مِن غيري، ورَبِّي أَعلَمُ بي مِن نَفْسي، فهُو يَسْتَبْطِئُ نفسَهُ في العملِ، ويأْتي ما يأْتي مِن الأعمالِ الصالِحَةِ على وجلٍ، ويظلُّ يذْكُرُ، ويُمْسِي وهمُّهُ أَنْ يَشْكُرَ، يبيتُ حَذِراً، ويُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لما حذرَ مِن الغفلةِ، وفَرِحاً لما أَصابَ مِن الغَنيمَةِ والرَّحمَةِ، إِنْ عَصَتْهُ نفسُهُ فيما يكْرَهُ؛ لَمْ يُطِعْها فيما أَحَبَّتْ، فرغْبَتُهُ فيما يَخْلُد، وزهادَتُه فيما يَنْفَدُ، يمزُجُ العلمَ بالحِلْمِ، ويصمُتُ؛ ليسْلَمَ، وينطِقُ؛ ليُفْهِمَ، ويخلو؛ لِيَغْنَمَ، ويخالِقُ؛ ليُعَلِّمَ، لا ينصِتُ لخيرٍ حين ينصِتُ وهُو يَسْهو، ولا يستَمِعُ لهُ وهُو يَلْغو، لا يُحَدِّثُ أَمانَتَهُ الأصدِقاءَ، ولا يكْتُمُ شهادَتَهُ الأعداءَ، ولا يَعْمَلُ مِن الخيرِ شيئاً رياءً، ولا يتْرُكُ منهُ شيئاً حَياءً، مجالِسُ الذِّكْرِ مع الفُقراءِ أَحَبُّ إليهِ مِن مجالِسِ اللهوِ مع الأغنياءِ.

ولا تكُنْ يا بنيَّ ممَّن يَعْجَبُ باليَقينِ مِن نفسهِ فيما ذَهَبَ، وينْسى اليقينَ فيما رَجا وطَلَبَ، يقولُ فيما ذَهَبَ: لو قُدِّر شيءٌ لَكانَ، ويَقولُ فيما بَقِيَ: ابْتَغِ أَيُّها الإنسانُ، شاخصاً غيرَ مطْمَئِنٍّ، ولا يَثِقُ مِن الرِّزْقِ بما قدْ ضُمِنْ، لا تَغْلِبُه نفسُه على ما يظنُّ، ولا يغْلِبُها على ما يَسْتَيْقِنُ، فهُو مِن نفسهِ في شكٍّ، ومِن ظَنِّهِ أَنْ لم يُرْحَمْ في هَلَك، إنْ سَقِمَ؛ نَدِمَ، وإِنَّ صحَّ؛ أَمِنَ، وإِنِ افْتَقَرَ؛ حَزِنَ، وإِنِ اسْتَغْنى؛ افتُتِنَ، وإِنْ رغِبَ؛ كسلَ، وإن نشطَ؛ زهدَ، يرغَبُ قبلَ أَن ينصَبَ، ولا ينصَبُ فيما يرغَبُ، يقولُ: لم أَعمَلْ فأَتَعنَّى، بل أَجلِسُ فأَتَمنَّى، يتمنَّى المغفرةَ، ويعملُ بالمعصيةِ، كانَ أَولُ عمرِهِ غفلةً وغرةً، ثم أُبقِيَ وأُقيلَ العثرةَ، فإذا في آخرِهِ كَسَلٌ وفَتْرَةٌ، طالَ

عليهِ الأملُ فافْتُتِنَ، وطالَ عليهِ الأمدُ فاغْتَرَّ، وأُعْذِرَ إليهِ فيما عُمِّرَ، وليس فيما أَعْمَرَ بِمُعْذَر، عُمِّرَ ما يتذَكَّر فيه مَن تذكَّرَ، فهو مِن الذنبِ والنعمةِ موقَّرٌ، إنْ أَعْطَى؛ مَنَّ؛ لِيُشْكَرَ، أو إن مُنِعَ؛ قالَ: لم يقدِرْ، أساءَ العبدُ واستأْثَرَ، يرجو النَّجاةَ ولم يحْذَرْ، ويبتَغي الزيادَةَ ولم يشْكُرْ، حقَّ أَنْ يَشْكُرَ وهو أَحَقُّ أَنْ لا يُعْذَرَ، يتكَلَّفُ ما لمْ يؤمَرْ، ويُضيِّعُ ما هُو أَكْثَرُ، إنْ يَسْأَلْ؛ أَكْثَرَ، وإنْ أَنْفَقَ؛ قَتَّرَ، يسأَلُ الكَثيرَ، وينفِقُ اليسيرَ، قدَّرَ لهُ خيرٌ مِن قَدْرِهِ لنَفْسِهِ، فوُسِّعَ له رزقُهُ، وخُفِّفَ حسابُهُ، فأُعطيَ ما يكفيهِ، ومُنِعَ ما يُلهيهِ، فليس يرى شيئاً يُغنيهِ دونَ غِنىً يُطْغيهِ، يعجزُ عن شُكْرِ ما أُوتيَ، ويبتَغي الزيادَةَ فيما بَقِيَ، يستبطىءُ نفسَه في شُكْرِ ما أُوتِيَ، وينسى ما عليهِ مِن الشكرِ فيما وُفِّيَ، يُنْهى فلا ينْتَهي، وَيَأْمُرُ بما لا يأْتي، يَهْلِكُ في بُغْضِهِ، ويُقَصِّرُ في حُبِّه، غرَّه مِن نفسهِ حُبُّهُ ما ليسَ عندَه، وبغْضُهُ ما عندَه مثلُهُ، يحبُّ الصالحينَ فلا يعمَلُ أَعمالَهم، ويبغِضُ المُسيئينَ وهو أَحدُهُم، يرجو الآخرةَ في البغضِ على ظنِّهِ، ولا يخشى المقْتَ في اليقينِ مِن نفسهِ، لا يقْدِرُ في الدُّنيا على ما يَهْوى، ولا يَقْبَلُ مِن الآخرةِ ما يَبْقى، يُبادِرُ مِن الدُّنيا ما يَفْنى، ويَتْرُكُ مِن الآخرةِ ما يَبْقى، إنْ عُوفِيَ؛ حسبَ أَنَّه قد تابَ، وإنِ ابْتُلِيَ؛ عادَ يقولُ في الدُّنيا قولَ الزاهِدينَ، ويعْمَلُ فيها عَمَلَ الرَّاغِبينَ، يكرَهُ الموتَ؛ لإساءَتِه، ولا يَنْتَهي عن الإساءَةِ في حَياتِه، يكرهُ الموتَ؛ لما لا يدَعُ، ويحبُّ الحياةَ؛ لما لا يصْنَعُ، إنْ مُنِعَ مِن الدُّنيا؛ لم يَقْنَع، وإنْ أُعْطِيَ منها؛ لم يشْبَعْ، وإنْ عَرَضَتِ الشهوةُ؛ قالَ: يكفيكَ العملُ، فواقَعَ، وإنْ عَرَضَ لهُ العَمَلُ؛

كَسِلَ، وقالَ: يكفيكَ الوَرَعُ، لا تُذْهِبُ مخافَتُه الكَسَلَ، ولا تَبْعَثُهُ رغبتُه على العمـلِ، يرجـو الأجْرَ بغيرِ عملٍ، ويؤخِّرُ التوبةَ؛ لِطولِ الأملِ، ثم لا يسعى فيما لهُ خُلِقَ، ورغبتُهُ فيما تُكُفِّلَ لهُ مِن الرزقِ، وزهادتُه فيما أُمِر به من العمـلِ، ويتفرَّغُ لما فُرِّغَ له من الرزق، يخشى الخلقَ في ربِّه، ولا يخشى الرَّبَّ في خَلْقِهِ، يعوذُ باللهِ ممَّنْ هو فوقَه، ولا يُعيذُ اللهَ مَن هو تحتَه، يخشى الموتَ، ولا يَرْجو الفَوْتَ، يأْمَنُ ما يخشى وقد أَيْقَنَ بهِ، ولا ييأَسُ مما يَرجو وقد تيقَّنَ منهُ، يرجو نفعَ علمٍ لا يعْمَلُ به، ويأْمَنُ ضُرَّ جَهْلٍ قد أَيقنَ بهِ، يَسْخَرُ بِمَن تحتَهُ مِن الخلقِ، ويَنْسَى ما عليهِ فيهِ مِن الحَقِّ، ينْظُرُ إلى مَن هُو فوقَه في الرِّزْقِ، ويَنْسى مَن تحتَهُ مِن الخَلْقِ، يخافُ على غيرِه بأَدْنى مِن ذَنْبِهِ، ويَرْجـو لنفسـهِ بأَيْسرَ مِن عملِهِ، يُبْصِرُ العَوْرةَ مِن غيرِه، ويُغْفِلُها مِن نفسهِ، إنْ ذَكَرَ اليقينَ؛ قالَ: ما هٰكذا مَن كانَ قبلَكُم، فإنْ قيلَ: أَفلا تعمَلُ أَنتَ عملَهُم؟ يقولُ: مَن يستطيعُ أَنْ يكونَ مثلَهُم؟ فهُو للقولِ مُدل، ويستصعبُ عليهِ العَمَلُ، يرى الأمانةَ ما عُوفِي وأُرْضِيَ، والخيانَةَ إنْ أُسْخِطَ وابْتُلِي، يلينُ؛ لِيُحْسَبَ عندَهُ أَمانةٌ، فهو يرصُدُها للخيانَةِ، يتعلَّمُ للصَّداقةِ ما يُرْصَدُ بهِ للعداوةِ، يستَعْجِلُ بالسيئةِ وهو في الحسنةِ بطيءٌ، يخفُّ عليهِ الشِّعْرُ، ويَثْقُلُ عليهِ الذِّكْرُ، اللغوُ معَ الأغنياءِ أَحبُّ إليهِ مِن الذِّكْرِ مع الفقـراءِ، يتعَجَّـلُ النومَ، ويؤخِّرُ الصومَ، فلا يَبيتُ قائماً، ولا يصبِحُ صائماً، ويصبحُ وهمُّهُ التصبُّحُ مِن النَّومِ ولم يسْهَرْ، ويمشي وهَمُّهُ العشاءُ وهُو مُفْطِرٌ.

زاد الحَجَّاجُ عن المسعُودِيِّ في روايتِهِ:

إنْ صَلَّى؛ اعْتَرَضَ، وإنْ رَكَعَ؛ رَبَضَ، وإنْ سَجَدَ؛ نَقَرَ، وإنْ سأَلَ؛ أَلْحَفَ، وإنْ سُئِلَ؛ سَوَّفَ، وإنْ حَدَّثَ؛ حَلَفَ، وإنْ حَلَفَ؛ حَنَثَ، وإنْ وَعَدَ؛ أَخلَفَ، وإنْ وُعِظَ؛ كَلَحَ، وإنْ مُدِحَ؛ فَرِحَ، طلبُهُ شرٌّ، وتَرْكُهُ وِزْرٌ، ليس لهُ في نفسهِ عن عيبِ الناسِ شُغُلٌ، وليسَ لهُ في الإحسانِ فضلٌ، يميلُ لها ويحبُّ لها منهُم العدلُ، أَهلُ الخيانَةِ لهُ بِطانةٌ، وأَهْلُ الأمانةِ لهُ عَداوَةٌ، إنْ سَلَّمَ؛ لم يُسْمِعْ، وإنْ سَمَّعَ؛ لم يَرْجِعْ، ينظرُ نظَرَ الحسودِ، ويعْرِضُ إعراضَ الحَقودِ، يَسْخَرُ بالمقتِّرِ، ويأْكُلُ بالمدبرِ، ويرضي الشاهِدَ بما ليسَ في نفسهِ، ويسْخِطُ الغائِبَ بما لا يُعْلَمُ فيهِ، جريءٌ على الخيانةِ، بريءٌ مِن الأمانةِ، مَن أَحبَّ؛ كذبَ، ومَن أَبْغَضَ؛ خَلَبَ، يضحَكُ مِن غيرِ العجَبِ، ويَمْشي في غَيْرِ الأدبِ، لا يَنْجُو منهُ مَن جانَبَ، ولا يَسْلَمُ منهُ مَن صاحَبَ، إنْ حَدَّثْتَهُ؛ ملَّكَ، وإنْ حَدَّثَكَ؛ غَمَّكَ، وإنْ سُؤْتَهُ؛ سَرَّكَ، وإنْ وَافَقْتَهُ؛ حَسَدَكَ، وإنْ خالَفْتَهُ؛ مَقَتَكَ، يحْسُد إنْ يُفْضَلْ، ويزهدُ أَن يَفْضُلَ، يحسدُ مَن فَضَلَهُ، ويزْهَدُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ، يعجزُ عن مكافأَةِ مَن أَحسنَ إليهِ، ويُفْرِطُ فيمَن بغى عليهِ، ولا يُنْصِتُ فَيَسْلَمَ، ويتَكَلَّمُ بما لا يَعْلَمُ، يغلِبُ لسانُهُ قلْبَه، ولا يضبطُ قلبُهُ قولَهُ، يتعلَّمُ للمِراءِ، ويتفَقَّهُ للرِّياءِ، ويظهِرُ الكِبرياءَ، فيظهَرُ منهُ ما أَخْفى، ولا يَخْفَى منهُ ما أَبْدَى، يُبادِرُ ما يَفْنَى، ويواكِلُ مَا يَبْقى، يبادِرُ بالدُّنْيا، ويُواكلُ بالتَّقْوى[٤].

---

(٤) أخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٢٦٠ - ٢٦٣) بإسنادين عنه.

وَصِيَّةُ عُمَرَ بن ذَرٍّ
في تَذَكُّرِ هاذِمِ اللَّذَّاتِ

عن النَّضْرِ بنِ إسْماعيلَ قالَ: سَمِعْتُ أَبا ذرٍّ[1] يقولُ في كلامِهِ:

أَما الموتُ؛ فقدْ شُهِرَ لكُم، فأَنْتُم تنظُرونَ إليهِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ:

مِن بينِ منقولٍ عزيزٍ على أَهلِه، كريمٍ في عشيرتِه، مطاعٍ في قومِه، إلى حفرةٍ يابسةٍ، وأَحجارٍ مِن الجنْدَلِ صُمٍّ، ليس يقْدِرُ لهُ الأهْلونَ على وِسادٍ؛ إلا خَالَطَهُ في الهَوامُّ، فوِسادُهُ يومئذٍ عَمَلُهُ.

ومِن بينِ مَغْمُومٍ غَريبٍ، قد كَثُرَ في الدُّنيا هَمُّهُ، وطالَ فيها سَعْيُهُ، وتَعِبَ فيها بَدَنُهُ، جاءَهُ الموتُ مِن قبلِ أَنْ ينالَ بُغْيَتَهُ، فأَخَذَهُ بَغْتَةً.

ومِن بينِ صبيٍّ مُرْضَعٍ، ومريضٍ مُوجَعٍ، ورهنٍ بالشَّرِّ مولَعٍ، وكلُّهُم بسهمِ الموتِ يُقْرَعُ.

---

(١) هو عمر بن ذر بن عبدالله بن زرارة الهَمْداني المُرْهبي، من ثقات أتباع التابعين، توفي سنة ١٣٥هـ.

ترجمته في: «تهذيب التهذيب» (٧ / ٤٤٤)، و«حلية الأولياء» (٥ / ١٠٨)، وغيرها.

أَما للعابِدينَ مِن عِبَرٍ في كلامِ الواعظينَ؟!

ولربَّما قلتُ: سبحانَهُ، وجَلَّ جَلالُهُ، لقد أَمْهَلَكُم حتى كأَنَّهُ أَهْمَلَكُم، ثم أَرْجِعُ إلى حِلْمِهِ وقدْرَته، ثم أَقولُ: بلْ أَخَّرَنا إلى حينِ آجالِنا ـ سبحانَهُ؛ إلى يومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبصارُ، وتَجِفُّ فيهِ القُلوبُ: ﴿مُهْطِعينَ مُقْنِعِي رُؤوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إليهِمْ طَرْفُهُمْ وأَفْئِدَتُهُم هَواءٌ﴾(٢).

يا ربِّ! قد أَنْذَرْتَ وحَذَّرْتَ، فلكَ الحُجَّةُ على خَلْقِكَ.

ثم قرأَ:

﴿وأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يأْتِيْهِمُ العَذابُ فيقولُ الذينَ ظَلَموا رَبَّنا أَخِّرْنا إلى أَجَلٍ قَريبٍ﴾(٣).

ثم يقولُ:

أَيُّها الظالمُ! أَنتَ في أَجَلِكَ الذي اسْتَأْجَلْتَ، فاغْتَنِمْهُ قبلَ نفاذِهِ، وبادِرْهُ قبلَ فوتِه، وآخرُ الأجلِ مُعايَنَةُ الأَجَلِ عندَ نزولِ الموتِ، فعندَ ذلك لا ينفَعُ الأسفُ.

إنَّما ابنُ آدمَ غَرَضٌ للمَنايا مَنصوبٌ، مَن رَمَتْهُ بِسهامِها؛ لم تُخْطِئْهُ، ومَن أَرادَتْهُ؛ لم تُصِبْ غَيْرَهُ.

أَلا وإنَّ الخيرَ الأَكْبَرَ خيرُ الآخرَةِ الدَّائِمُ فلا ينْفَدُ، والباقي فَلا يَفْنَى،

---

(٢) إبراهيم: ٤٣.

(٣) إبراهيم: ٤٤.

والمُمْتَدُّ فلا يَنْقَطِعُ.

والعِبادُ المُكْرَمونَ في جِوارِ الله ـ تعالى ـ مُقيمونَ في كُلِّ ما اشتَهَتِ الأنْفُسُ، ولذَّتِ الأعيُنُ، متزاوِرونَ على النَّجائِبِ، ويتلاقَوْنَ، فيتذاكَرونَ أيَّامَ الدُّنيا.

هَنيئاً للقومِ هَنيئاً، لقَدْ وَجَدَ القومُ بُغْيَتَهُمْ، ونَالوا طِلْبَتَهُمْ، إذ كانتْ رَغْبَتُهُم إلى السيِّدِ الكريمِ المُتَفَضِّلِ (٤).



(٤) أخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٥ / ١١٥ ـ ١١٦).

وَصِيَّةُ الحَسَنِ البَصْرِيِّ لِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ

كَتَبَ الحسنُ[1] إلى عُمَرَ بنِ عبدِالعزيزِ[2]:

اعلَمْ أَنَّ التَّفكُّرَ يدعو إلى الخيرِ والعملِ بهِ، والنَّدَمَ على الشرِّ يدعو إلى تركِهِ، وليس ما يفنى ـ وإنْ كان كثيراً ـ يعْدِلُ ما يبقى ـ وإنْ كانَ طلبُهُ عزيزاً، واحتمالُ المَؤونَةِ المنقطعَةِ التي تُعْقِبُ الراحةَ الطويلةَ خيرٌ من تعجيلِ راحةٍ منقطعةٍ تُعْقِبُ مؤونةً باقيةً.

فاحْذَرْ هٰذه الدارَ الصارِعَةَ الخادعَةَ الخاتِلَةَ التي قد تزيَّنَتْ بخِدَعِها، وغرَّتْ بغُرورها، وقتلَتْ أَهْلَها بأَمَلِها، وتشوَّفَتْ لخُطَّابِها، فأَصبَحَتْ كالعروسِ المَجْلُوَّةِ: العيونُ إليها ناظِرَةٌ، والنفوسُ لها عاشِقةٌ، والقُلوبُ إليها والِهةٌ، ولألبابِها دامغةٌ، وهي لأزواجِها كلِّهم قاتِلةٌ، فلا الباقي بالماضي معتَبِرٌ، ولا الآخرُ بما رأى مِن الأوَّلِ مُزدَجِرٌ، ولا اللبيبُ بكَثْرةِ

(١) هو البصري، من سادات التابعين، وقد أغنت شهرته عن ذكر ترجمته.

(٢) هو أَشج بني أُمية، خامس الخلفاء الراشدين، ومجدد القرن الأول، وشهرته ذائعة، وأخباره مستفيضة شائعة.

التَّجارِبِ مُنْتَفِعٌ، ولا العارِفُ باللهِ والمُصَدِّقُ لهُ حينَ أَخْبَرَ عنها مُدَّكِرٌ.

فأَبَتِ القُلوبُ لها إلا حُبّاً، وأَبَتِ النُّفوسُ بها إلا ضَنّاً، وما هذا منّا لَها إلا عِشْقاً، ومَن عَشِقَ شيئاً؛ لَمْ يَعْقِلْ غيرَهُ، وماتَ في طلبِهِ، أو يظفَرَ بهِ، فهُما عاشِقانِ طالِبانِ لها:

فعاشِقٌ قد ظَفِرَ بها واغتَرَّ، ونَسِيَ بها المبدَأَ والمَعادَ، فَشُغِلَ بها لُبُّهُ، وذُهِلَ فيها عَقْلُهُ، حتى زَلَّتْ عنها قَدَمُهُ، وجاءَتْهُ أَسْرَعَ ما كَانَتْ لهُ مَنِيَّتُهُ، فعَظُمَتْ نَدامَتُه، وكُسِرَتْ حَسْرَتُهُ، واشتَدَّتْ كُرْبَتُهُ؛ مَعَ ما عالَجَ مِن سكْرَتِهِ، واجتمعتْ عليهِ سَكَراتُ الموتِ بأَلمِهِ، وحسرةُ الموتِ بغُصَّتِهِ، غيرَ موصوفٍ ما نزلَ بهِ.

وآخَرُ ماتَ قبلَ أَنْ يَظْفَرَ منها بحاجَتِهِ، فذَهَبَ بكُرْبِهِ وغَمِّهِ، لم يُدْرِكْ منها ما طَلَبَ، ولم يُرِحْ نَفْسَهُ مِن التَّعَبِ وا نَّصَبِ، خَرَجا جميعاً بغيرِ زادٍ، وقَدِما على غيرِ مِهادٍ.

فاحْذَرْها الحَذَرَ كُلَّهُ؛ فإِنَّها مثلُ الحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسُّها، وسُمُّها يقْتُلُ.

فأَعْرِضْ عما يُعْجِبُكَ فيها؛ لقلَّةِ ما يصحَبُكَ منها، وضَعْ عنكَ همومَها؛ لما عايَنْتَ مِن فجائِعِها، وأَيْقَنْتَ بهِ مِن فِراقِها، وشدِّدْ ما اشتَدَّ منها لرخاءِ ما يصيبُكَ، وكُنْ أَسَرَّ ما تكونُ فيها أَحْذَرَ ما تكونُ لها؛ فإِنَّ صاحِبَها كُلَّما اطمأَنَّ إلى سُرورٍ لهُ؛ أَشْخَصَتْهُ عنها بمكروهٍ، وكُلَّما ظفِرَ بشَيْءٍ منها، وَثَنى رجلاً عليهِ؛ انْقَلَبَتْ بهِ.

فالسَّارُّ فيها غَارٌّ، والنافعُ فيها غداً ضارٌّ، وُصِلَ الرَّخاءُ فيها بالبلاءِ، وجُعِلَ البقاءُ فيها إلى فناءٍ، سرورُها مشوبٌ بالحُزْنِ، وآخرُ الحياةِ فيها الضعفُ والوَهَنُ، فانظُرْ إليها نَظَرَ الزاهِدِ المفارِقِ، ولا تنظُرْ نَظَرَ العاشِقِ الوامِقِ.

واعلَمْ أنَّها تزيلُ الثاويَ الساكِنَ، وتَفْجَعُ المغرورَ الآمِنَ، لا يَرْجِعُ ما تولَّى منها فأَدْبَرَ، ولا يُدْرَى ما هُو آتٍ فيها فيُنْتَظَرُ.

فاحْذَرْها؛ فإنَّ أَمانيها كاذبةٌ، وإنَّ آمالَها باطلةٌ، عيشُها نَكِدٌ، وصفوُها كَدِرٌ، وأنْتَ منها على خطَرٍ: إمَّا نعمةٌ زائِلَةٌ، وإمَّا بليَّةٌ نازِلَةٌ، وإمَّا مُصيبةٌ موجِعَةٌ، وإمَّا مَنِيَّةٌ قاضِيَةٌ.

فلقد كدَّتْ عليهِ المعيشةُ إنْ عَقَلْ، وهُو مِن النعماءِ على خَطَرٍ، ومِن البَلْوى على حَذَرٍ، ومِن المَنايا عَلى يَقينٍ، فلو كانَ الخالِقُ تَعالى لم يُخْبِرْ عنها بخَبَرٍ، ولم يضرِبْ لها مثلاً، ولم يأْمُرْ فيها بزهدٍ؛ لكانتِ الدَّارُ قد أَيْقَظَتِ النائِمَ، ونَبَّهَتِ الغَافِلَ.

فكيفَ وقد جاءَ مِن اللهِ ـ تعالى ـ عنها زاجِرٌ، وفيها واعِظٌ؟! فما لها عندَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ قَدْرٌ، ولا لها عندِ اللهِ ـ تعالى ـ وَزنٌ مِن الصِّغَرِ، ولا تزِنُ عندَ اللهِ ـ تعالى ـ مقدارَ حَصاةٍ مِن الحَصا، ولا مِقدارَ ثراةٍ في جَميعِ الثَّرى، ولا خَلَقَ خَلْقاً ـ فيما بُلِّغْتُ ـ أَبْغَضَ إليهِ مِن الدُّنْيا، ولا نَظَرَ إليها منذُ خَلَقَها؛ مَقْتاً لها.

ولقد عُرِضَتْ على نبيِّنا ﷺ بمفاتيحِها وخَزائِنِها، ولم يَنْقُصْهُ ذلك

عندَهُ جَناحَ بَعُوضةٍ، فأَبى أَنْ يقْبَلَها، وما مَنَعَهُ مِن القَبولِ لها ـ ولا يَنْقُصُهُ عندَ اللهِ تعالى شيءٌ ـ إلا أَنَّهُ علمَ أَنَّ الله ـ تعالى ـ أَبغَض شيئاً فأَبْغَضَهُ، وصَغَّرَ شيئاً فصَغَّرَهُ، ووضَعَ شيئاً فوَضَعَهُ، ولو قَبلَها؛ كانَ الدَّليلَ على حُبِّهِ إيَّاها قَبولُها، ولكنَّهُ كَرِهَ أَنْ يحِبَّ ما أَبْغَضَ خالِقُهُ، وأَنْ يرفَعَ ما وَضَعَ مَليكُهُ.

ولو لم يَدُلُّهُ على صِغَرِ هٰذه الدَّارِ إلا أَنَّ الله ـ تعالى ـ حَقَّرَها أَنْ يجعَلَ خَيْرَها ثواباً للمُطيعين، وأَنْ يجْعَلَ عُقوبَتَها عذاباً للعاصينَ، فأَخْرَجَ ثوابَ الطاعةِ منها، وأَخرَجَ عقوبَةَ المعصيةِ عنها.

وقد يدلُّكَ على شَرِّ هٰذه الدَّارِ أَنَّ الله ـ تعالى ـ زَواها عن أَنبيائِهِ وأَحبائِهِ اختباراً، وبَسْطها لغيرِهِم اعتباراً واغتراراً.

ويَظُنُّ المغرورُ بها والمفتونُ عليها أَنَّهُ إِنَّما أَكرَمَهُ بها، ونَسِيَ ما صَنَعَ بمحمدٍ المصطفى ﷺ، وموسى المختارِ ـ عليه السلامُ ـ بالكلامِ لهُ وبمناجاتِهِ:

فأَمَّا محمدٌ ﷺ؛ فَشَدَّ الحَجَرَ على بطنِهِ مِن الجوعِ.

وأَمَّا موسى ـ عليه السلامُ؛ فَرُئِيَ خُضرَةُ البقلِ مِن صفاقِ بطنِهِ مِن هُزالِهِ، ما سأَلَ الله ـ تعالى ـ يومَ أَوى إلى الظِّلِّ إلا طعاماً يأْكُلُهُ مِن جوعِهِ.

ولقد جاءَتِ الرواياتُ عنهُ أَنَّ الله ـ تعالى ـ أَوْحَى إليهِ أَنْ يا موسى! إذا رأَيْتَ الفقرَ مقبلاً؛ فقُلْ: مَرْحباً بِشِعارِ الصالحينَ، وإذا رأَيْتَ الغنى قدْ أَقْبَلَ؛ فقلْ: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقوبَتُه.

وإنْ شئتَ ثلَّثْتَهُ بصاحِبِ الرُّوحِ والكَلِمَةِ، ففي أَمرِهِ عجيبةٌ، كانَ يقولُ: أُدْمي الجوعُ، وشعاري الخَوفُ، ولِباسي الصُّوفُ، ودابَّتي رجلي، وسراجي بالليلِ القمرُ، وصَلايَتي في الشِّتاءِ الشمسُ، وفاكِهَتي ورَيحاني ما أَنبَتَتِ الأرضُ للسباعِ والأنعامِ، أَبيتُ وليس لي شيءٌ، وليس أَحدٌ أغنى مني.

ولو شئتَ؛ ربَّعْتُ بسليمانَ بنِ داودَ ـ عليهما السلامُ ـ فليس دُونَهُم في العجبِ، يأْكُلُ خبزَ الشَّعيرِ في خاصَّتِهِ، ويطْعِمُ أَهْلَهُ الخشكارَ والناسَ الدرمكَ، فإذا جَنَّهُ الليلُ؛ لبسَ المسوحَ، وغَلَّ اليدَ إلى العُنُقِ، وباتَ باكياً حتى يصبحَ، يأْكُلُ الخَشِنَ مِن الطَّعامِ، ويَلْبَسُ الشَّعَرَ مِن الثِّيابِ.

كلُّ هٰذا؛ يبغضون ما أَبغضَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويُصَغِّرونَ ما صَغَّرَ الله ـ تعالى، ويزهَدُونَ فيما فيهِ زَهَّدَ.

ثم اقتصَّ الصالِحونَ بعدُ مِنْهاجَهُمْ، وأَخذوا بآثارِهم، وأَلزموا الكَدَّ والعبرَ، وأَلطَفوا التَّفكُّرَ، وصَبَروا في مدةِ الأجلِ القصيرِ عن متاعِ الغُرورِ الذي إلى الفناءِ يصيرُ، ونَظَروا إلى آخرِ الدُّنيا، ولم ينظُرُوا إلى أَوَّلِها، ونظروا إلى عاقِبَةِ مَرارَتِها ولم ينظرُوا إلى عاجِلَةِ حَلاوَتِها.

ثم أَلزموا أَنفُسَهُم الصبرَ؛ أَنزلوها من أَنفُسِهِم بمنزلةِ المَيْتَةِ التي لا يحِلُّ الشِّبَعُ منها إلا في حالِ الضَّرورةِ إليها، فأَكلوا منها بقدْرِ ما يرُدُّ النفسَ، ويَقِي الرُّوحَ، ومَكَنِ اليومِ، وجعلوها بمنزلةِ الجيفةِ التي قد اشتَدَّ نَتنُ ريحِها، فكُلُّ مَن مرَّ بها؛ أَمسكَ على أَنفهِ منها، فهُم يصيبونَ منها

لحالِ الضُّرِّ، ولا يَنْتَهونَ منها إلى الشِّبَعِ مِن النَّتنِ، فقُرِّبَتْ عنهُم، وكانت هٰذه منزلَتُها مِن أَنفُسِهم، فهُم يَعْجَبونَ مِن الآكِلِ منها شِبَعاً، والمتلذِّذِ بها أَشَـراً، ويقولونَ في أَنفُسِهِمْ: أَما ترى هٰؤلاءِ لا يَخافونَ مِن الأكلِ؟! أَما يَجِدونَ ريحَ النَّتنِ؟!

وهي واللهِ يا أَخي في العاقبةِ والآجِلَةِ أَنتَنُ مِن الجِيفَةِ المَرْصوفَةِ، غيرَ أَنَّ أَقواماً اسْتَعْجَلوا الصبرَ؛ فلا يَجِدونَ ريحَ النَّتنِ، والذي نشأَ في ريحِ الإِرهابِ النَّتِنِ لا يَجِدُ نَتَنَهُ، ولا يجِدُ مِن ريحِهِ ما يؤذي المارَّةَ، والجالِسَ عندَه.

وقد يكْفي العاقلَ منها أَنَّهُ مَن ماتَ عنها وترَكَ مالاً كثيراً؛ سَرَّهُ أَنَّهُ كانَ فيها فَقيراً، أَو شريفاً؛ أَنَّهُ كانَ فيها وَضيعاً، أَو كانَ فيها معافىً؛ سَرَّهُ أَنَّهُ كانَ فيها مُبْتَلىً، أَو كانَ مُسَلْطَناً؛ سرَّهُ أَنَّهُ كانَ فيها سوقةً.

وإِنْ فارقْتَها؛ سرَّكَ أَنَّكَ كنتَ أَوْضَعَ أَهْلِها ضَعَةً، وأَشدَّهُم فيها فاقةً، إِليس ذٰلك الدليلَ على خِزْيِها لمَنْ يَعْقِلُ أَمْرَها؟!

واللهِ لو كانتِ الـدُّنيا مَن أَرادَ منها شيئاً؛ وَجَدَهُ إِلى جنبِهِ؛ مِن غيرِ طَلَبٍ ولا نَصَبٍ؛ غير أَنَّه إِذا أَخذَ منها شيئاً؛ لزِمَتْهُ حُقوقُ اللهِ فيه، وسأَلَهُ عنه، ووَقَفَهُ على حِسابِهِ؛ لكانَ ينْبَغي للعاقِلِ أَنْ لا يأْخُذَ منها إِلا قَدْرَ قُوتِهِ وما يكفي؛ حذرَ السُّؤالِ، وكراهيةً لشدَّةِ الحسابِ.

وإِنَّما الدُّنيا إِذا فكَّرتَ فيها ثلاثةُ أَيامٍ: يومٌ مضى لا تَرْجوهُ، ويومٌ أَنْتَ فيه ينبَغي لكَ أَن تَغْتَنِمَهُ، ويومٌ يأْتي لا تَدْري أَنتَ مِن أَهلِهِ أَم لا؟ ولا تَدْري

لعلَّكَ تموتُ قبلَهُ.

فأَمَّـا أَمْسِ ؛ فحَكيمٌ مُؤدِّبٌ، وأَمَّـا اليومَ ؛ فَصديقٌ مُوَدِّعٌ، غيرَ أَنَّ أَمسِ وإِنْ كانَ قدْ فجَعَكَ بنفسهِ ؛ فقد أَبْقى في يديكَ حِكْمَتَهُ، وإِنْ كنتَ قد أَضَعْتَهُ ؛ فقد جاءَكَ خَلَفٌ منهُ، وقد كانَ عنكَ طويلَ الغَيْبَةِ، وهو الآنَ عنكَ سَريعُ الرِّحْلَةِ.

وغَداً أَيضاً في يديكَ منهُ أَمَلُهُ، فخُذِ الثِّقَةَ بالعمَلِ، واتْرُكِ الغرورَ بالأَمَلِ قبلَ حُلولِ الأجَلِ، وإِيَّاكَ أَن تُدْخِلَ على اليومِ هَمَّ غَدٍ أَو هَمَّ ما بعْـدَهُ ؛ زدتَ في حُزنِـكَ وتعَبِكَ، وأَرَدْتَ أَن تجْمَعَ في يومِكَ ما يكفيكَ أَيامَكَ، هيهاتَ، كَثُرَ الشُّغُلُ، وزادَ الحُزْنُ، وعَظُمَ التَّعَبُ، وأَضاعَ العبدُ العمَلَ بالأَمَلِ.

ولو أَنَّ الأملَ في غَدِكَ خَرَجَ مِن قلْبِكَ ؛ أَحسنْتَ اليومَ في عَمَلِكَ، واقتصـرتَ لهَمِّ يومِكَ، غيرَ أَنَّ الأملَ منكَ في الغَدِ دَعاكَ إِلى التَّفريطِ، ودَعاكَ إِلى المزيدِ في الطَّلَبِ.

ولَئِنْ شئتَ واقتصرتَ ؛ لأَصِفَنَّ لكَ الدُّنْيا ساعةً بين ساعتينِ، ساعةٍ ماضيةٍ، وساعةٍ آتيةٍ، وساعةٍ أَنتَ فيها.

فأَمَّا الماضيةُ والباقيةُ ؛ فليسَ تَجِدُ لراحَتِهِما لذَّةً، ولا لِبلائهِما أَلَماً، وإِنَّما الدنيا ساعةٌ أَنتَ فيها، فخَدَعَتْكَ تلكَ الساعةُ عن الجَنَّةِ، وصيَّرَتْكَ إِلى النَّارِ.

وإنَّمـا اليومُ ـ إنْ عَقَلْتَ ـ ضيفٌ نَزَلَ بكَ وهـو مرْتَحِلٌ عنكَ، فإنْ أَحسنْتَ نُزُلَـهُ وقِراهُ؛ شهِدَ لكَ، وأثْنى عليكَ بذٰلك، وصدَقَ فيكَ، وإنْ أَسَأْتَ ضيافَتَه ولم تحْسِنْ قِراهُ؛ جالَ في عينيك.

وهما يومانِ بمنزلةِ الأخوينِ، نَزَلَ بكَ أَحَدُهما، فأَسأْتَ إليهِ، ولم تحسِنْ قِراهُ فيما بينَكَ وبينَهُ، فجاءَكَ الآخرُ بعدَه، فقال: إنِّي قد جئتُكَ بعد أخي، فإنَّ إحسانَكَ إليَّ يمحو إساءَتَكَ إليهِ، ويَغْفِرُ لك ما صنعْتَ، فدونَكَ إذْ نَزَلْتُ بكَ وجِئْتُكَ بعدَ أَخي المرتَحِلِ عنكَ، فلقدْ ظفِرْتَ بخَلَفٍ منهُ إنْ عَقَلْتَ، فَدَارِكْ ما قدْ أَضَعْتَ، وإن أَلْحَقْتَ الآخِرَ بالأوَّلِ؛ فما أَخلَقَكَ أَنْ تَهْلِكَ بشهادَتِهِما عليكَ.

إنَّ الذي بقيَ مِن العُمُر لا ثمنَ له ولا عدلَ، فلو جُمِعَتِ الدُّنيا كلُّها ما عدَلت يوماً بقيَ مِن عُمُرِ صاحبه، فلا تبعِ اليومَ وتعْدِلْهُ مِن الدُّنيا بغيرِ ثمنِـه، ولا يكـونَنَّ المقبـورُ أَعـظَمَ تعظيماً لما في يديكَ منكَ وهو لكَ، فلَعَمْري لو أَنَّ مدفوناً في قبرِه قيل له: هٰذه الدُّنيا ـ أَولُها إلى آخرها، تَجْعَلها لولدِكَ مِن بعدِكَ يَتَنَعَّمونَ فيها مِن ورائِكَ، فقد كنتَ وليس لك همٌّ غيرَهُم ـ أَحَبُّ إليكَ أَم يومٌ تُتْرَكُ فيهِ تَعْمَلُ لنفسِكَ؛ لاختارَ ذٰلك، وما كانَ لِيجمَعَ مع اليومِ شيئاً إلا اختارَ اليومَ عليهِ؛ رغبةً فيهِ، وتعظيماً له.

بل لو اقتصـرَ على ساعـةٍ خُيِّرَهـا ومـا بينَ أَضعافِ ما وصفتُ لكَ وأَضعافِه يكونُ لسواهُ؛ إلا اختارَ الساعَةَ لنفسهِ على أَضعافِ ذٰلك يكونُ لغيرِه.

بل لو اقْتَصَـرَ على كلمـةٍ يقـولُهـا تُكْتَبُ لهُ وبين ما وصفتُ لكِ وأَضعافِهِ؛ لاختارَ الكلمةَ الواحدَةَ عليهِ.

فانتَقِـدِ اليومَ لنفسِـكَ، وأَبْصِـرِ السـاعَةَ، وأَعظِمِ الكلمةَ، واحْذَرِ الحَسْرَةَ عندَ نُزولِ السَّكْرَةِ، ولا تأْمَنْ أَن تكونَ لهٰذا الكلامِ حُجَّةٌ، نفعَنا الله وإِياكَ بالموعِظَةِ، ورزَقَنا وإِيَّاكَ خيرَ العواقِبِ.

والسَّلامُ عليكُمْ ورحمَةُ اللهِ وبَركاتُهُ[3].



(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢ / ١٣٤ ـ ١٤٠).

وَصَايَا عُمَرَ بن عَبْدِ العَزيز في لُزومِ السُّنَّةِ واتِّباعِ السَّلَفِ الصَّالحِ

عن شهابِ بنِ خِراشٍ[١] قالَ: كتَبَ عُمَرُ بنُ عبدِالعزيزِ إلى رجلٍ:

سلامٌ عليكَ.

أمَّا بعدُ:

فإنِّي أُوصيكَ بتَقْوى اللهِ، والاقتصادِ في أَمْرِهِ، واتِّباعِ سُنَّةِ رسولِهِ، وتَرْكِ ما أَحْدَثَ المُحْدِثونَ بعْدَهُ، مما جَرَتْ سُنَّته، وكُفُوا مؤونَتَهُ.

ثم اعْلَمْ أَنَّهُ لم تكُنْ بدعةٌ قطُّ إلا وقدْ مَضَى قبلَها ما هُو دَليلٌ عليها، وعِبْرَةٌ فيها، فعليكَ بلزومِ السُّنَّةِ، فإنَّها ـ بإذنِ اللهِ ـ لكَ عِصْمَةٌ، فإنَّ السُّنَّةَ إنَّما سَنَّها مَن قدْ عَلِمَ ما في خِلافِها مِن الخَطَإِ والزَّلَلِ والحُمْقِ والتَّعَمُّقِ.

فارْضَ لنَفْسِكَ بما رَضِيَ بهِ القومُ لأنفُسِهِمْ، فإنَّهُم على علمٍ وَقَفوا،

(١) هو شهاب بن خِراش بن حَوْشَب الشيباني، كوفي الأصل، انتقل إلى الشام، وسكن الرملة في فلسطين، ومات بها، وهو صدوق، صاحب سنة.

انظر «تهذيب الكمال» (١٢ / ٥٦٨ ـ ٥٧٢).

وببصَرٍ نافذٍ كُفوا، ولَهُم كانوا على كشفِ الأمورِ أقوى، وبفضلٍ ما فيهِ ـ لو كانَ ـ أَحْرَى، فإنَّهُم السَّابِقونَ.

ولئنْ كانَ الهُدَى ما أنْتُم عليهِ؛ لقَدْ سَبَقْتُموهُم إليهِ.

ولئنْ قلتَ: حَدَثَ بعدَهُم حَدَثٌ؛ فما أَحْدَثَهُ إلا مَن خَالَفَ سبيلَهُم، ورَغِبَ بنفْسِهِ عنهُم.

ولقد تكَلَّموا منهُ بما يَكْفي، ووَصَفوا منهُ ما يَشْفِي، فما دُونَهُم مُقصِّرٌ، ولا فوقَهُم مُحْسِنٌ، لقدْ قَصَّرَ عنهُم أقوامٌ فجَفَوْا، وطَمِحَ عنهُم آخَرونَ فغَلَوْا، وإنَّهُم بينَ ذلك لَعَلى هُدىً مستقيمٍ[٢].



عن مالِكٍ[٣] قالَ: كانَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ يقولُ:

سَنَّ رسولُ اللهِ ﷺ وولاةُ الأمورِ مِن بعدِهِ سُنَناً، الأخْذُ بها تَصْدِيقٌ لكتابِ اللهِ، واسْتِكْمالٌ لطاعَةِ اللهِ، وقوَّةٌ على دِينِ اللهِ.

مَن اهْتَدى بها مُهْتَدِي، ومَنِ اسْتَنْصَرَ بها مَنْصورٌ، ومَن خالَفَها؛ اتَّبَعَ

---

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (١ / ٣٢١ ـ ٣٢٢).

وروى اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٦) أن عمر بن عبدالعزيز كتب بإحياء السنة وإماتة البدعة.

(٣) هو إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة.

غَيْرَ سَبيلِ المؤمِنينَ، وولَّاهُ اللهُ ما تَوَلَّى، وأَصْلاهُ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيْراً[٤].

قالَ مالكٌ:

وأَعْجَبَني مِن عُمَرَ حينَ أَوجبَ لهُ النار.

وزادَ عندَ قولِهِ: «على دينِ اللهِ»:

«ليسَ لأحدٍ تبديلَها ولا تَغْييرَها ولا في شيءٍ خالَفَها»[٥].



(٤) النساء: ١١٥.

(٥) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (١ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

وَصِيَّةُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ في هَجْرِ أَهْلِ البِدَعِ

عنْ أبي عَلِيٍّ حَنْبَلِ بنِ إسحاقَ بنِ حَنْبَلٍ[1] قالَ:

كَتَبَ رجلٌ إلى أَبي عبدِ اللهِ[2] ـ رحِمَهُ الله ـ كِتاباً يستأْذِنُهُ في أَنْ يَضَعَ كِتاباً يَشْرَحُ فيهِ الرَّدَّ على أَهْلِ البِدَعِ، وأَنْ يَحْضُرَ مَعَ أَهلِ الكَلامِ، فيُناظِرَهُمْ، ويحْتَجَّ عليهِمْ، فكَتَبَ إليهِ أَبو عبدِاللهِ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ.

أَحْسَنَ اللهُ عاقِبَتَكَ، ودَفَعَ عنكَ كُلَّ مَكْروهٍ ومحذورٍ.

الذي كُنَّا نسمَعُ، وأَدْرَكْنا عليهِ مَن أَدْرَكْنا مِن أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُم كانوا

---

(١) هو ابن عم الإمام أحمد بن حنبل، كان ثقة، مأموناً، له مسائل عن الإمام أحمد أجاد في روايتها، توفي بواسط سنة ٢٧٣هـ.

له ترجمة في «طبقات الحنابلة» (١ / ١٤٣ ـ ١٤٥)، و«تاريخ بغداد» (٨ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٢) هو إمام أهل السنة، وناصر الإسلام يوم المحنة، أحمد بن حنبل الشيباني، أحد الأئمة الأربعة.

يَكْـرَهُـونَ الكـلامَ، والجُلوسَ معَ أَهْلِ الزَّيْغِ، وإنَّما الأمورُ في التَّسْليمِ والانْتِهاءِ إلى ما كانَ في كِتابِ اللهِ أو سُنَّةِ رَسولِ اللهِ لا في الجُلوسِ معَ أَهْلِ البِدَعِ والزَّيْغِ؛ لِتَرُدَّ عليهِمْ؛ فإنَّهُم يُلَبِّسونَ عليكَ، وهُم لا يَرْجِعونَ.

فالسَّلامَةُ ـ إنْ شَاءَ اللهُ ـ في تَرْكِ مُجالَسَتِهِمْ، والخَوْضِ معَهُمْ في بِدْعَتِهِمْ وضَلالَتِهِمْ، فلْيَتَّقِ اللهَ امرؤٌ، ولْيَصِرْ إلى ما يَعودُ عليهِ نَفْعُهُ غَداً مِن عَمَلٍ صالحٍ يقَدِّمُهُ لنَفْسِهِ، ولا يَكُنْ مِمَّنْ يُحْدِثُ أَمْراً، فإذا هُو خَرَجَ منهُ؛ أَرادَ الحُجَّةَ، فيَحْمِلُ نَفْسَهُ على المُحالِ فيهِ، وطَلَبِ الحُجَّةِ لما خَرَجَ منهُ بحَقٍّ أو بباطِلٍ؛ لِيُزَيِّنَ بهِ بِدْعَتَهُ، وما أَحْدَثَ، وأَشدُّ مِن ذٰلكَ أَنْ يَكونَ قَدْ وَضَعَهُ في كِتابٍ قدْ حُمِلَ عنهُ، فهُو يُريدُ أَنْ يُزَيِّنَ ذٰلك بالحَقِّ والباطِلِ، وإِنْ وَضَحَ لهُ الحَقُّ في غيرِهِ، ونسْأَلُ اللهَ التَّوفيقَ لنا ولكَ.

والسَّلامُ عليكَ(٣).

قلتُ: وقـد ثَبَتَ عن أَئِمَّةِ السَّلَفِ ـ رحمهم الله ـ أَقوالٌ مِثلُ كَلِمَةِ الصدِّيقِ الثاني العالِمِ الرَّبَّاني إمام أَهل السنةِ وناصرِ الإسلامِ يومَ المحنَةِ أَحمَدَ بنِ حَنْبَلٍ الشَّيْبانِيِّ.

وقـدْ أَوْرَدَهـا بأَسـانيدِهـا الشيخُ الإمامُ والعلاَّمَةُ الهُمَامُ أَبو عبدِاللهِ عُبَيْدُاللهِ بنُ محمدِ بنِ بَطَّةَ العُكْبَرِيُّ في كتابه الفذِّ الموسوم بـ «الإبانة عن شريعـة الفـرقـة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» **(٢ / ٤٢٩ ـ ٤٨٣)**،

---

(٣) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» **(٢ / ٤٧١ ـ ٤٧٢)**.

فانظره، فإنه نفيس.

وحسبُك قولُه (٢ / ٤٢٩):

«قد أَعْلَمْتُكَ يا أخي ـ عَصَمَني الله وإياكَ مِن الفِتَنِ، ووقانا وإياكَ جَميعَ المِحَنِ ـ أنَّ الذي أوردَ القُلوبَ حِمامَها، وأَوْرَثَها الشَّكَّ بعْدَ اتِّقائِها، هو البَحْثُ، والتَّنْقِيرُ، وكَثْرَةُ السُّؤالِ عمَّا لا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ، وقد كَفِيَ العُقَلاءُ مُؤْنَتَهُ، وأنَّ الذي أَمْرَضَها بعدَ صحتِها، وسَلَبها أثوابَ عافِيَتِها، إنَّما هُو مِن صُحبةِ مَنْ تَغُرُّ إِلْفَتُهُ، وتُورِدُ النَّارَ في القِيامَةِ صُحْبَتُهُ.

أما البَحْثُ والسُّؤالُ؛ فقد شرحْتُ لكَ ما إنْ أَصغَيْتَ إليهِ ـ مع توفيقِ اللهِ؛ عَصَمَكَ، ولكَ فيهِ مَقْنَعٌ وكِفايَةٌ.

وأمَّا الصُّحْبَةُ؛ فسَأَتْلوا عليكَ مِن نَبَأَ حَالِها ما إنْ تَمسَّكْتَ بهِ؛ نَفَعَكَ، وإنْ أَرَدْتَ اللهَ الكَريمَ بهِ؛ وَفَّقَكَ».

ثمَّ ساقَ الآياتِ والأحاديثَ والآثارَ، وعزَّزَها بكلماتٍ تُنْبِىءُ البصيرَ الحاذِقَ، والغُفْلَ الرَّيِّضَ عن جِنايَةِ مجالَسَةِ أَهْلِ البدَعِ والأهْواءِ، وأنَّ فاعِلَ ذٰلك على شَفا جُرُفِ الفِتْنَةِ، وإنْ رَأَى أنَّهُ أَهْلٌ لمجابَهَتِهِمْ، نعوذُ باللهِ مِن خاتمةِ السوءِ.

ومِن ذٰلك قولُه (٢ / ٤٧٠):

«فاللهَ اللهَ معشرَ المسلمينَ! لا يحمِلَنَّ أَحَداً منكُمْ حُسْنُ ظَنِّهِ بنفسِهِ، وما عَهِدَ مِن معرِفَتِهِ بصحَّةِ مذهَبِهِ؛ على المُخاطَرَةِ بدينِه في مُجالَسَةِ بعضِ

أَهْلِ هٰذهِ الأهواءِ، فيقولُ: أُداخِلُهُ؛ لأناظِرَهُ أو لأَسْتَخْرِجَ منهُ مذهَبَهُ؛ فإِنَّهُم أَشدُّ فتنةً مِن الدَّجَّالِ، وكلامُهُمْ أَلْصَقُ مِن الجَرَبِ، وأَحْرَقُ للقُلوبِ مِن اللَّهَبِ.

ولقدْ رأَيْتُ جماعةً مِن النَّاسِ كانُوا يَلْعَنونَهُم ويَسُبُّونَهُم، فجالَسوهُم على سَبيلِ الإنكارِ والردِّ عليهِمْ، فما زالَتْ بهِمُ المُباسَطَةُ وخَفِيُّ المَكْرِ ودَقيقُ الكُفْرِ حتى صَبَوْا إِليهِمْ».

قلتُ: صَدَقَ ونَصَحَ، فقدْ رأَيْنا ذٰلك عياناً.

ولقدْ نشَأَتْ نابتَةٌ اعْتَزَتْ إلى مَنْهَجِ السَّلَفِ، وما هُم على ذٰلك؛ إلا دَعْوى لأمورٍ لا تَخْفَى، جالَسوا أَهْلَ الأهواءِ تحتَ شِعارِ مُناظَرَتِهِم، وكَشْفِ حَقيقَتِهِمْ، ولم يَرْكَنوا لأقوالِ أَئِمَّةِ السَّلَفِ الذينَ خبروا أَهْلَ الأهواءِ، وسَبَروا مذاهِبَهُمْ الصَّمَّاءَ، فحذَّروا مِن هٰذه الفتنةِ الصَّلعاءِ، حتى صارَ الأَمْرُ كما وصفَ ابنُ بَطَّةَ فقال (٢ / ٤٨٠):

«فقدْ فاضَ البحْرُ العميقُ، فاسْتَغْنى عن هٰذا التمييزِ والنَّظَرِ والتَّدقيقِ، وفقدتْ تلكَ الأعيانُ، وصارتِ الزَّنْدَقَةُ يتفكَّهُ بها الأحداثُ والشُّبَّانُ، ظاهرةً في السوقَةِ والعَوامِّ، وصارَ التَّعريضُ تَصْريحاً، والتَّمريضُ تَصْحيحاً، فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجِعونَ.

مسَّكَنا اللهُ وإِيَّاكُم بعُروتِهِ الوُثْقى، وأَعاذَنا وإِيَّاكُم مِن مُضِلَّاتِ الهوى، ولا جَعَلَنا وإِيَّاكُم ممَّن باعَ آخِرَتَهُ بالدُّنيا، إِنَّهُ سميعٌ مُجيبٌ».

وقالَ (٢ / ٤٨٢):

«فـرَحِمَ الله أَئِمَّتنـا السَّـابِقينَ وشُيوخَنَـا الغَـابِـرينَ، فَلَقَدْ كانُوا لَنا نَاصِحينَ، وجَمَعَنا وإيَّاهُم معَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، وحَسُنَ أُولٰئكَ رَفيقاً، ولا جَعَلَنا مِن الأئمَّةِ المُضِلِّينَ، ولا مِمَّنْ خَلَفَ محمداً ﷺ في أُمَّتِـهِ بمُخالَفَةٍ، وجاهَدَهُ؛ لمحارَبَته، والطَّعْنِ على سُنَّتِهِ، وشَتْمِ صَحَابَتِهِ، ودَعا النَّاسَ بالغِشِّ لهُم إلى الضَّلالِ وسُوءِ المَقالِ».

قلتُ: رَحِمَ اللهُ أَئمَّتَنا مِن السَّلَفِ الصَّالحِ، الذينَ سَبَقونا بالعِلْمِ والإيمانِ، فقدْ نَصَحُوا لنا، وصدَقوا، فإنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وما كانَ الأمرُ لِيَصيرَ إلى ما نرى لو دَرَجَ الأدْعِياءُ على أَثَرِهم، ولكنَّهُم زَبَّبوا قبلَ أَنْ يُحَصْرِموا، ورَاموا البُروز قبلَ أَنْ يَنْضُجُوا، وبالَغوا قبلَ أَنْ يَبْلُغوا، وناموا عنِ العِلْمِ فمـا استيْقَـظوا، ورَكِبـوا مَطايا الخيرِ للشَّـرِّ، فاصْطَنَعوا النِّزالَ في حَلائِبِ العِلْمِ، يريدُونَ أَنْ يُعَظَّموا بذٰلك، فاللهُمَّ نَشْكو إليكَ هٰذا الغُثاءَ الذي أَكثَرَ في العُلومِ الشرعيةِ الدَّخَنَ، وفتحَ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ دهاليزَ الوَهَنِ، وعلى أَيديهِم تَسَلَّلَ أَهْلُ البِدَعِ والفِتَنِ.

قالَ العلاَّمَةُ البحرُ الرَّائِقُ ذو التَّحقيقِ الفائقِ أَبو القاسِمِ اللاَّلَكَائِيُّ في كتابه المستطابِ الموسومِ بـ «شرح أُصولِ اعتقادِ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» (١ / ١٧ - ٢٠):

«فمَضَت على هٰذه القرونِ ماضونَ؛ الأوَّلونَ والآخِرونَ، حتى ضربَ الدهرُ ضَرَباتِه، وأَبْدى مِن نفسهِ حدثانِه، وظهَرَ قومٌ أَجْلافٌ زَعَموا أَنَّهُم لِمَنْ

قَبْلَهُم أَخْـلافٌ، وادَّعَـوْا أَنَّهُم أَكْبَـرُ منهُم في المَحْصـولِ، وفي حَقـائِقِ الـمعقــولِ، وأَهْــدى إِلى التَّحقيقِ، وأَحسنُ منهُم في التَّــدْقيقِ، وأَنَّ المتقَـدِّمينَ تفـادَوا مِن النَّـظَرِ؛ لعَجْـزِهِمْ، ورَغِبـوا عن مكـالمتِهِمْ؛ لقِلَّةِ فهْمِهِمْ، وأَنَّ نصـرةَ مذهَبِهِم في الجِدالِ معهُم، حتى أَبْدَلوا مِن الطَّيِّبِ خَبيثاً، ومِن القديمِ حديثاً، وعَدَلوا عمَّا كانَ عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ، وبعثَهُ اللهُ عليهِ، وأَوْجَبَ عليهِ دعوةَ الخلقِ إِليهِ، وامْتَنَّ على عبادِهِ إِتْمامَ نعمَتِهِ عليهِم بالهِدايةِ إِلى سبيلِهِ، فقالَ تَعالى:

﴿**واذْكُـروا نِعْمَةَ اللهِ عليْكُمْ وما أَنْزَلَ عليكُمْ مِن الكِتابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾.

فوَعَظَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عبادَهُ بكتابِه، وحثَّهُم على اتِّباعِ سنَّةِ رسولِه.

وقالَ في آيةٍ أُخرى:

﴿**ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ**﴾؛ لا بالجدالِ والخُصومَةِ.

فرغبـوا عنهُمـا، وعـوَّلـوا على غيرهمـا، وسلكـوا بأَنفسهم مسلكَ المضلِّينَ، وخاضوا مع الخائِضينَ، ودخلوا في ميدانِ المتحيِّرينَ، وابْتَدعوا مِن الأدلَّـةِ ما هُو خلافُ الكتـابِ والسنَّـةِ؛ رغبـةً للغَلَبَةِ وقهرِ المخالفينَ للمقـالَـةِ، ثم اتَّخـذوهـا دينـاً واعتقـاداً بعـدمـا كانت دلائلَ الخصوماتِ والمعـارضاتِ، وضلَّلوا مَن لا يعتَقِدُ ذلك مِن المسلمين، وتسمَّوْا بالسنة

والجماعة، ومَن خالَفَهُم وَسَمُوهُ بالجهلِ والغباوَةِ.

فأَجابَهُم إلى ذٰلك مَن لم يكُنْ لهُ قدمٌ في معرفَةِ السُّنَّةِ، ولم يسعَ في طَلَبِها؛ لما يلْحَقُهُ فيها مِن المشقَّةِ، وطَلَبَ لنفسهِ الدَّعَة والرَّاحةَ، واقتصَرَ على اسمِـهِ دونَ رسْمِـهِ؛ لاستعجالِ الرياسةِ، ومحبةِ اشتهارِ الذكرِ عندَ العامَّةِ، والتَّقَلُّبِ بإمامةِ أَهلِ السنَّةِ، وجعلَ دأْبَهُ الاستخفافَ بنقلةِ الأخبارِ، وتزهيدَ النَّاسِ أَنْ يَتَدَيَّنوا بالآثارِ؛ لجهلهِ بطرُقِها، وصعوبةِ المرامِ بمعرفةِ معانيها، وقصورِ فهْمِهِ عن مواقعِ الشريعَةِ منها، ورسومِ التديُّنِ بها، حتى عَفَتْ رسومُ الشَّرائعِ الشريفةِ، ومعاني الإسلامِ القديمةِ، وفُتِحت دَواوينُ الأمثـالِ والشُّبَهِ، وطُوِيَتْ دلائلُ الكتابِ والسنَّةِ، وانْقَرَضَ مَن كانَ يتدَيَّنُ بحُجَجِهـا للأخـذِ بالثقـةِ والتَّمَسُّكِ بهما للضنَّةِ، ويصونُ سمْعَهُ عن هٰذه البـدَعِ المُحْـدَثَـةِ، وصـارَ كُلُّ مَن أَرادَ صاحِبَ مقـالَةٍ؛ وَجَدَ على ذٰلك الأصحابَ والأتباعَ، وتوهَّمَ أَنَّهُ ذاقَ حَلاوَةَ السُّنَّةِ والجماعَةِ بنَفاقِ بدعَتِهِ.

وكلا؛ إنه ليس كما ظنه أَو خَطَرَ ببالِه، إذ أَهلُ السنةِ لا يرغبونَ عن طرائقِهِم مِن الاتِّباعِ، ولو نُشروا بالمناشيرِ، ولا يستوْحِشونَ لمخالَفَةِ أَحدٍ بزُخْرُفِ قولٍ مِن غُرورٍ، أَو بضربِ أَمثالِ زورٍ.

فما جَنَى على المسلمينَ جِنايةً أَعْظَمُ مِن مُناظَرَةِ المبتَدِعَةِ، ولم يكنْ لهُم قَهْرٌ ولا ذلٌّ أَعظمُ مما تَرَكَهُمُ السلفُ على تلكَ الجملةِ؛ يموتونَ مِن الغيظِ؛ كمداً ودرداً، ولا يَجدونَ إلى إظهارِ بدعتِهِم سبيلاً.

حتى جاءَ المغـرورونَ ففتحـوا لهُم إليها طريقاً، وصاروا لهم إلى

هلاكِ الإسـلامِ دليلاً، حتى كثُـرَتْ بينَهُم المشـاجَـرَةُ، وظهَرَتْ دعْوَتُهُم بالمُناظَرَةِ، وطرقتْ أسماعَ مَن لم يكُنْ عَرَفَها مِن الخَاصَّةِ والعامَّةِ، حتى تقابَلتِ الشُّبَهُ في الحُجَجِ، وبَلَغوا مِن التدقيقِ في اللُّجَجِ، فصاروا أقراناً وأخْـدانـاً، وعلى المُـداهَنَـةِ خِلّاناً وإخواناً، بعد أنْ كانوا في اللهِ أعداءً وأضْـداداً، وفي الهجـرةِ في اللهِ أعـوانـاً يكفِّـرونَهُم في وجوهِهِم عياناً، ويلْعَنونَهُم جَهاراً، وشتَّانَ ما بينَ المنزِلَتَيْنِ، وهيهاتَ ما بينَ المقامَيْنِ.

نسـألُ الله أنْ يَحْفَظَنا مِن الفِتْنَةِ في أدْيانِنا، وأنْ يُمْسِكَنا بالإسلامِ والسُّنَّةِ، ويعْصِمَنا بهِما بفضْلِه ورحمَتِهِ.



الفهارس

فهرس الآيات القرآنية



فهرس الأحاديث والآثار

الأحاديث الشريفة

الآثار المخرجة

فهرس الأعلام المترجم لهم



ثبت المصادر والمراجع

- «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية»: ابن بطة العكبري، دار الراية.
- «الاتباع»: ابن أبي العز الحنفي، المكتبة السلفية، لاهور.
- «أخبار القضاة»: وكيع، عالم الكتب.
- «الأدب المفرد»: البخاري، المكتبة السلفية.
- «أسد الغابة في معرفة الصحابة»: ابن الأثير، دار الفكر.
- «الإصابة في تمييز الصحابة»: ابن حجر، مؤسسة الرسالة.
- «الاعتصام»: الشاطبي، دار الفكر.
- «إعلام الموقعين»: ابن قيم الجوزية، دار الجيل.
- «الأمالي الخميسية»: الشجري، عالم الكتب.
- «البداية والنهاية»: ابن الأثير، مكتبة المعارف.
- «البدعة وأثرها السيِّىء في الأمة»: المؤلف، دار الهجرة، الدمام، الطبعة الثالثة.
- «تاريخ ابن معين»، تحقيق: أحمد محمد نور سيف، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية.

- «تاريخ دمشق»: ابن عساكر، مخطوط.
- «تاريخ عثمان بن سعيد الدارمي»، تحقيق: أحمد محمد نور سيف، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- «التاريخ الكبير»: البخاري، دار الفكر.
- «تقريب التهذيب»: ابن حجر، دار المعرفة.
- «تلبيس إبليس»: ابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
- «تهذيب التهذيب»: ابن حجر، طبع الهند.
- «تهذيب الكمال»: المزي، مؤسسة الرسالة.
- «الثقات»: ابن حبان، دار الفكر.
- «جامع بيان العلم وفضله»: ابن عبدالبر، دار الكتب العلمية.
- «الجامع الصحيح»: البخاري، مع «فتح الباري»، دار الفكر.
- «الجرح والتعديل»: ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية.
- «حلية الأولياء»: أبو نعيم، دار الفكر.
- «ذيل الكاشف»: العراقي، دار الكتب العلمية.
- «الرياء ذمه وأثره السيِّىء في الأمة»: المؤلف، مكتبة ابن الجوزي، الدمام.
- «الزهد»: أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية.
- «الزهد»: عبد الله بن المبارك، دار الكتب العلمية.
- «الزهد»: وكيع بن الجراح، مكتبة الدار.
- «السنن»: أبو داود، دار الفكر.
- «السنن»: الترمذي، دار إحياء التراث العربي.
- «السنن»: الدارقطني، طبع مصر.
- «السنن»: الدارمي، دار الفكر.
- «السنن»: النسائي، دار الكتاب العربي.
- «السنن الكبرى»: البيهقي، دار الفكر.

- «سير أعلام النبلاء» : الذهبي ، مؤسسة الرسالة .
- «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» : اللالكائي ، دار طيبة .
- «شرح حديث (ما ذئبان جائعان)» : ابن رجب، طبع الكويت .
- «شرح السنة» : البغوي ، المكتب الإسلامي .
- «شعب الإيمان» : البيهقي ، مخطوط .
- «الصحيح» : مسلم بن الحجاج، مع شرح النووي .
- «الصمت» : ابن أبي الدنيا، طبع مصر.
- «طبقات الحنابلة» : أبو يعلى ، دار المعرفة .
- «الطبقات الكبرى» : ابن سعد ، دار صادر.
- «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» : محمد بن أحمد الفاسي المكي ، مؤسسة الرسالة .
- «الفقيه والمتفقه» : الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية .
- «كشف الأستار عن زوائد البزار» : الهيثمي ، مؤسسة الرسالة .
- «كنز العمال» : علي المتقي بن حسام الدين الهندي ، مؤسسة الرسالة .
- «المجروحين» : ابن حبان ، دار المعرفة .
- «مجمع البحرين في تخريج أحاديث الوحيين» ، المؤلف، دار الهجرة، الدمام .
- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» : الهيثمي ، دار الكتاب العربي .
- «مجموع الفتاوى» : ابن تيمية ، طبع السعودية .
- «المدخل إلى السنن» : البيهقي ، دار الخلفاء ، الكويت .
- «المسند» : أحمد بن حنبل ، دار الفكر.
- «مسند الشهاب» : القضاعي ، تحقيق : حمدي السلفي ، مؤسسة الرسالة .
- «المعجم الكبير» : الطبراني ، تحقيق : حمدي السلفي ، طبع العراق .
- «المعرفة والتأريخ» : الفسوي ، تحقيق : أكرم العمري ، مؤسسة الرسالة .

- «المغني عن حمل الأسفار»: العراقي، مع «إحياء علوم الدين».
- «ميزان الاعتدال»: الذهبي، دار المعرفة.
- «نصب الراية»: الزيلعي، دار الحديث.



فهرس المواضيع والفوائد



طبع بإشراف
دار الصَّحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ٦٠٠٥/١٣ شوران
بيروت - لبنان



دار ابن الجوزي